1

عالم الوحوش والبرابرة الزاخر بالأخطار

بعد نحو عام واحد من 9/11 نشرت الشيكاغو صن - تايمز زاوية بقلم جون أوسلَيفان تقوِّم تقديم تمييز ما بعد 9/11 ضد الأمريكيين من ذوي الأصول العربية والمسلمة. الزاوية شاملة وملتهبة، مع نبرة سخط أخلاقي عميقة. يجري ربط الحركة الارتجاعية ضد العرب والمسلمين الأمريكيين بالمذبحة الإسرائيلية في جنين عام 2002 وجائحة إحراق الكنائس السوداء الوبائية في 1996. ثمة مشكلة واحدة فقط: لم تكن الحركة الارتجاعية، بنظر أوسليفان، سوى أسطورة خرافية.

كذلك يؤمن أوسليفان - مثل جُل مؤيدي إسرائيل - أن مذبحة جنين كانت خرافة متقنة الإخراج. ومما يذكر له من فضل أنه لا يجادل حقيقة أن الكنائس السوداء أُحرقت في الولايات المتحدة سنة 1996. فالاختفاء المادي لتلك الكنائس أمر يصعب إنكاره، غير أن الاختفاء المادي لأعداد لا تحصى من الفلسطينيين المدنيين بجنين هو الآخر صعب الإنكار كذلك، إلا أن أوسليفان يصر على سَوْق الفكرة المستمدة من خطاب التطهير العرقي الكلاسيكية والقائلة إن إسرائيل لا تُقْدم قط على ذبح مدنيين. وعلى الرغم من

obeikandi.com

تدمير كنائس الزنوج في 1996، فإن أوسليفان يبين أن عمليات إحراق الكنائس قد تناقصت فعلياً منذ عام 1980، كما لو أن هذه الحقيقة تُعفي مقترفي جرائم 1996 من المسؤولية. لا يقدّم بالفعل أي دليل على أن إحراق الكنائس لم تكن مستلهمة من النزعة العنصرية: يقدم - بدلاً من ذلك - أدلة تؤكد أن "روابط عَرَضية فقط" يمكن العثور عليها في حوادث إحراق كنائس الزنوج"(1). كما لو أن تلك الحوادث "العرضية" المزعومة بريئة وغير ذات أهمية.

يتركز القسم الرئيس من مقال أوسليفان على معاينة ما يعدها حركة ارتجاعية خرافية في حقبة ما بعد 9/11 ضد الأمريكيين العرب والمسلمين أفرزتها وسائل إعلام ليبرالية مولعة بتضخيم حوادث بسيطة وبريئة بوصفها تعبيراً عن عنصرية مؤسساتية تعزيزاً لجدول أعمال متعدد الثقافات كريه(2). (والحقيقة هي أن الحركة المعادية للعرب والمسلمين الأمريكيين تعرضت لقدرٍ مشين من قلة التغطية في وسائل الإعلام التي ينتقدها أوسليفان بالذات). من الواضح أن أوسليفان أخفق في أخذ رأي لجنة معاداة التمييز الأمريكية ـ العربية (ADC)، المعهد الأمريكي العربي (AAI)، اتحاد الحريات المدنية الأمريكي (ACLU)، شبكة العمل العربية الأمريكية (AAAN)، وما لا يحصى من المنظمات غير الربحية الأخرى التي دأبت على توثيق مئات حوادث التمييز ضد عرب ومسلمين أمريكيين خلال الأشهر التي أعقبت 9/11. أو كان يمكنه أن يطلع مباشرةً على رأي عرب ومسلمين أمريكيين، وهذه فكرة جديدة بالنسبة إليه، دون شك، غير أنها كانت مرشحة

بالتأكيد لأن تكون مفيدة نظراً لأن مقاله يدّعي تمثيل هذا العنصر السكاني - وينعته، في الحقيقة، بالكذب.

تبقى زاوية أوسليفان نمطية لأنها تتقاطع مع طوفان من التحليلات السياسية للتيارين الرئيس واليميني التي تصر على عد أن العنصرية مبالغ بها كثيراً أو هي غير موجودة فتستنتج أن أي محاولة لمناقشة العنصرية إن هي إلا دعاية أقلية أو هجوم على القيم الأمريكية. واليوم نرى أن العرب عرضة لمثل هذا الخطاب الذي أحالنا، بالرغم من تعرضنا الدائم للتهميش، على التيار الرئيس للوعي الأمريكي. بمعنى أننا أصبحنا على يقين بأننا أمريكيون لأن العنصرية الأمريكية أنجزت مهمة تجنيسنا مئة بالمئة.

ومع ذلك فإن مقال أوسليفان جدير بالملاحظة لسببين: يبين أسلوب التعبير عن العنصرية عبر إنكار العنصرية من جهة ويربط هواجس العرب بهواجس غيرهم من منتسبي الجماعات العرقية الأخرى من جهة ثانية. النقطة الأولى واضحة تلقائياً لأن العنصريين الأمريكيين طالما دأبوا على صياغة العنصرية ومفصلتها عبر إنكار العنصرية التي يعكفون على صياغتها بالذات، غير أنها جديرة بالملاحظة لأنها تلصق وصمة اصطناع الخرافات والأساطير بالعرب. يجري، إذن، استغلال وجود الجالية العربية في الولايات المتحدة وتوظيفها لإدامة الخطاب العنصري الأشمل الكامن في عمق تأكيدات أوسليفان. أما النقطة الثانية فهي أكثر حسماً؛ لأن أوسليفان لا يقوم بتجريد ما يطلق عليه اسم اصطناع عربي للخرافات والقصص الوهمية الزائفة من سياقه. بل يضعه في

صلب تراث حركية معاداة النزعة العنصرية ويأمل في أن يحذو القراء حذوه وصولاً إلى شجب ذلك التراث بوصفه تقليداً خاطئاً وهستيرياً. ثمة، إذن، تنبيهان: على محللي عنصرية معاداة العرب استكشاف الخطاب الأصلي الذي يوظفه أوسليفان أولاً؛ ومن شأن حركيي مناهضة العنصرية أن يكونوا حمقى إذا أغفلوا العرب، كما يفعل كثيرون اليوم، ثانياً.

أحياناً أتساءل عن أفضل سبل الرد على مزاعم شبيهة بمزاعم أوسليفان. من ناحية، لن يتردد عدد كبير من قرائه إزاء التسليم آلياً بتلك المزاعم لأنها تحصِّن إيديولوجيات موجودة سلفاً أو تخفف من وطأة أي قلق يمكن أن يساور القراء حول احتمال تأثير العنصرية في نظراتهم إلى العالم. ومن الناحية الثانية، نجد أن أوسليفان مخطئ مئة بالمئة والخفة التي يتغافل بها عن واقع الخطورة تبدو مبرِّرة لنوع من الرد وإن لم يكن مؤهلاً لإقناع الجمهور الذي يستهدفه أوسليفان. إذا كان عمل متقن ومستند إلى دراسات متأنية شبيه **بالغرباء الأعداء** ليفد كول(3)، الذي يوثِّق ما لا يُحصى من حالات التمييز المؤسسة، قابلاً للإغفال (المقصود أو غير المقصود) من جانب كتاب يدّعون تحرير العنصرية من الوهم وكشفها للملأ، فإننا، إذن، في مواجهة واقع لا يستطيع فيه أي قدر من الصحافة والبحث الأكاديمي الممتازين أن يتناغم بنجاح مع قسم من الجمهور الأمريكي. وهذه الحقيقة تسلط الضوء على واقع موازٍ: واقع أن أعداداً كبيرةً من الناس في المجتمع الأمريكي عنصريون يتعذر تغييرهم ومؤهلون دائماً للتبرئة من العنصرية بأوهام يروِّج لها أوسليفان وآخرون.

يزوِّدنا مقال أوسليفان بأنموذج كلاسيكي لتراث أبيض؛ لأنه لم يعش العنصرية قط فإنه يجد استحالة في تصور أن العنصرية موجودة فعلاً، وهذه مفارقة تبعث على السخرية لأنها تلقي الضوء على إحدى السمات الكلاسيكية للبند المطروح للمناقشة. ولأنه يمفصل العنصرية مع إنكار وجودها في الوقت نفسه، فإن عليه أن يصطنع (يفبرك) خطاباً يقوم على تجريد أولئك الذين يوثقونها تجريبياً أو عبر التعرض الشخصي لها من الشرعية. وهكذا فإنه يكرس نفسه ناطقاً باسم العرب، لاسيما العرب الذين يزعمون أنهم ضحايا للعنصرية. بعبارة أخرى، يحاول أوسليفان أن يتحكم بالخطاب العربي حتى يتمكن من إدارة الدور العربي في المجتمع الأمريكي، وهو أسلوب يعتمده كل من دانييل بايبس، مارتن كريمر، وآخرين من نقاد **دراسات الشرق الأدنى** (مجلة)، حين يتذمرون إزاء رغبة بعض العرب في تدريس مقررات حول ثقافاتهم وتواريخهم بالذات. أو، بعبارة أشمل، يشي خطاب أوسليفان بأنه يريد أن يحتفظ لنفسه ولزملائه بموقعهم المهيمن إزاء العرب في المجتمع الأمريكي، ويؤثر في الوقت نفسه في الرأي العام بفاعلية تكفي لتكريس عنصريتهم. يجري ترسيخ هذا التحرك عبر إنكار المخاوف العربية المشروعة إزاء الإزعاج بوصفه مؤامرة ماكرة ناشئة عن احتمال عرقي زائف، في حركة تقع في خطأ ابتداع نوع من الوعي الجماعي، والعمل من ثم على إضفاء صفة الشمول عليه.

لا يتطلب الكشف عن حالات عنصرية معادية للعرب في الولايات المتحدة أي خبرات بحثية (وبالنسبة إلى العرب لا يتطلب الأمر إلا أن يكونوا عرباً). **فيو إس إيه تودي**، مثلاً، تتحدث عن أن

الجاليات المسلمة - في طول الولايات المتحدة وعرضها - تجد - منذ 9/11 - صعوبةً في افتتاح المساجد بسبب المعارضة المحلية. وفي فورهيز النيوحيزية قام مناهضو المساجد بتوزيع "منشورات تحذر الأهالي من أن متطرفين "ذوي ارتباطات إرهابية" قد يُصَلُّون [في المسجد المقترح]"(4). وتعلق وكالة الصحافة الفرنسية على مادة نشرتها جريدة دترويت نيوز قائلةً: إن "ملاحقات العرب والمسلمين الأمريكيين [في دير بورن] ... قضائياً تزايدت كثيراً منذ هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر"(5). ففي العامين اللذين أعقبا 9/11 ارتفع عدد المتهمين العرب والمسلمين بنسبة 3.9 بالمئة في حين تقلصت محاكمة غير العرب بنسبة 7.6 بالمئة. وفي سنة 2002 عرضت الجالية اليهودية الأمريكية إعلانات تلفزيونية تجرد الفلسطينيين من إنسانيتهم وتختزلهم جميعاً إلى إرهابيين(6).

في 2004، أبرز أحد الإعلانات الداعية إلى إعادة انتخاب جورج بوش الابن والمتركزة على الإرهاب عربياً أسمر، شيئاً أطلق عليه جيمس زغبي اسم "أحد أشكال التصوير العنصري"(7). ففي الإعلان التجاري ما إن يتم التفوه بكلمة **إرهاب** حتى تظهر صورة العربي، الأمر الذي يعني ليس فقط أن جميع العرب إرهابيون، بل وأن الإرهاب موجود حصراً في العالم العربي (خلافاً، مثلاً، لحال البيت الأبيض حيث بوش مسؤول عن قتلى مدنيين أبرياء أكثر من أسامة بن لادن). ليس الربط بين كلمة **إرهاب** والصورة النمطية لعربي ملتحٍ إلا مؤشراً دالاً على صورة العربي في الوعي الأمريكي. فإعادة الإنتاج البصرية لمفهوم مجرد، يفترض أنه بلا وجه،

(الإرهاب) تشي بمدى تعويل منتجي الصورة النمطية على فن الكاريكاتور لاختزال ظواهر سياسية معقدة إلى حقائق بدهية.

إن الشباب العرب في الولايات المتحدة واعون، كما تقول الـ **بلتيمور صن**، لمدى تعرض ثقافتهم لإعادة الإنتاج عبر صور كاريكاتورية. ويدركون أيضاً مدى تأثر حيواتهم في الولايات المتحدة بالصور النمطية. طالب في مدرسة اللاتين للبنين في بلتيمور يدعى رضوان ياسين طعمة ألقى كلمة مدرسية زعم فيها أن "الطلاب العرب في المدارس الخاصة المحلية يقولون إن الغرباء باتوا - بعد هجمات 9/11 الإرهابية - يحدقون أو يطلقون عبارات نابية عند الكلام مع الأهل بلغة أجنبية، بلكنة أو عند ارتداء زي مختلف[(8)]. فكلمة "عربي" مرادفة، بنظر البعض لكلمة "إرهابي"، بمعنى أن جميع العرب إرهابيون"[(9)]. ومثله مثل أكثر الشباب العرب الأمريكيين، فإن طعمة يعلم أن هذه حقيقة استناداً إلى التجربة، لأن شباب عرب أمريكا مشمولون أيضاً بوسائل الإعلام الدائبة على التعميم والخطاب السياسي الذي قلما يقدم صورة متوازنة ومعتدلة للثقافات والمجتمعات العربية. فالإعلانات التجارية المأجورة الشبيهة بذلك الذي أطلقه بوش في 2004 لا تكتفي بتعزيز ذلك الخطاب بل وتدأب على إنتاجه.

ثقافة الكُره

منذ 1990 والعراق موضوع جدل في الولايات المتحدة بدرجات مختلفة. وعلاقة الحكومة الأمريكية بالحكومة السعودية سببت قلقاً كبيراً، خصوصاً بعد 9/11، بلغ أوجه مع كتاب **آل بوش، آل**

سعود لكرايغ أونغر[10]. وجملة حسنات وسيئات الحكومات العربية "المعتدلة" و"الأصولية" على التوالي مشمولة عادةً في مناقشات السياسة الخارجية الأمريكية. وحقوق الإنسان في العالم العربي كثيراً ما يتم إقحامها على النقاشات الدائرة حول الأخلاق الأمريكية. ومنذ 9/11 بات التحديث المزعوم للمجتمعات الإسلامية منطوياً على قدرٍ كبير من الأهمية بالنسبة إلى الأمريكيين. هذه القضايا، جميعها، تسهم بطريقةٍ ما، في انتشار عنصرية معاداة العرب، لأنها تصور العالم العربي عاملاً حاسماً من عوامل رخاء الولايات المتحدة وتتوصل، عادةً، إلى استنتاج يقول بأن هذا العالم يعطل التقدم الأمريكي. فعبر تورطها عسكرياً واقتصادياً في العالم العربي ضمنت الحكومة الأمريكية عدم حصول أي حوار ثقافي متبادل وأي تبادل سياسي ذي معنى بين الأمريكيين والعرب إلا نادراً.

ما من قضية، على أي حال، أفرزت قدراً أكبر من العنصرية المعادية للعرب من ذلك الذي تمخض عنه الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. فالدعم الشعبي والرسمي لإسرائيل أدى إلى مضاعفة أهمية العرب بالنسبة إلى سياسة أمريكا الخارجية. والأهم أن تبريرات إسرائيل المقبولة لاحتلال المناطق واستيطانها - وهي تبريرات أمنية، إرهابية، دينية إلهية وما إليها - تؤدي، بالضرورة، إلى وضع الفلسطينيين في مرتبة دون مرتبة يهود إسرائيل - والأمريكيين، استطراداً. ولأن إسرائيل حليفة جبارة للولايات المتحدة وموضوع الكثير من التغطية الإعلامية هنا، فإن الفلسطينيين ممثلون تمثيلاً كاسحاً في وسائل الإعلام الأمريكية.

وعملية التمثيل هذه التي كثيراً ما تهمش الفلسطينيين عبر إعطاء الأولوية للروايات الإسرائيلية عن المعاناة والريادة الشبيهة بنظيرتها الأمريكية، تتمخض عن إطار خطابي تزدهر فيه عنصرية معاداة العرب. وأنا ميال، في الحقيقة، إلى القول إن الصهاينة (مسيحيين ويهوداً) في الولايات المتحدة هم أكبر أداة تفريخ للعنصرية المعادية للعرب اليوم. وهذا لا يعني، بالضرورة أن الصهيونية، **بحد ذاتها**، مساوية للعنصرية (رأي سنعاينه في الفصل الرابع)، غير أن الصهاينة كانوا - دون أدنى شك - ناجحين في الترويج لمشروعهم الاستيطاني لدى الأمريكيين - وحيثما كان أي مشروع استيطاني جارياً، فإن السكان الأصليين الذين يتم استيطان أرضهم يجري إلباسهم دون استثناء ثوب اللاشرعية بوصفهم غير متمدنين أو متوحشين.

كتب جون بيرازو، مثلاً، في مقال بعنوان "ثقافة البُغض الفلسطينية" يقول:

> *نظراً إلى المدى الذي بلغته السلطة الوطنية الفلسطينية (AP)، عبر السنوات، في عملية شحن مواطنيها المنهجية بالتعصب الأعمى القائم على العنف، ثمة ما يدعو إلى التساؤل عما إذا كانت الكتلة السكانية الفلسطينية الراهنة متوفرة على الأساس المعنوي أو الأخلاقي اللازم لمتابعة التعايش السلمي مع إسرائيل. فأجيال الفلسطينيين الذين شُحنوا بهذه الجرعة الثابتة من الحقد ربما هلكوا وضاعوا إلى غير رجعة - باتوا عاجزين عن التسليم*

الحقيقي بمثل هذا التعايش حتى في ظل أفضل الشروط التي يمكن تصورها[11].

إشكالي بالطبع (وتزوير حتماً) أن يبادر أحدهم في أي وقت إلى الحط من شأن ثقافة بمجملها بوصفها كريهة قائمة على البغض والحقد. وفوق ذلك نجد أن مقال بيرازو خاطئ لأسباب كثيرة.

مستخدماً المفردات التقليدية للاستعمار الأوربي واليورو - أمريكي ينتقد بيرازو بذور البربرية، في المجتمع الفلسطيني جنباً إلى جنب مع "تعصبه المقيت"، مستخلصاً، دون أي تناغم نحوي، أن الفلسطينيين ليسوا إلا "قتلة منحطين"[12]. وهذا الانحطاط القائم على القتل موجود، إلى حدٍّ كبير، بسبب الكتب المدرسية المقررة في المدارس الفلسطينية التي "تحول عقول الفلسطينيين إلى خزانات سموم"[13]. يشي تعويل بيرازو على هذه الاستعارات السخيفة بالافتقار إلى المرجعية الفكرية، كما يتجلى في دعواه حول الكتب المدرسية الفلسطينية المتكررة آلاف المرات في سائر المنشورات الصهيونية. هل ثمة أي رسائل بغيضة عن اليهود في الكتب المدرسية الفلسطينية ووسائل الإعلام العربية؟ نعم. هل رسائل البغض تلك كاسحة كما يزعم بيزارو؟ لا، بالمطلق. فالعديد من الدعاوى التي يعدها الصهاينة والمحافظون الجدد "سامة" تركز على قيام إسرائيل بطرد الفلسطينيين في 1948، 1967، واليوم، وهو أمر ليس الأطفال الفلسطينيون بحاجة إلى دراسته كي يفهموه. تبقى مجتمعات الاستيطان شديدة العزوف عن تذكر العيوب الأخلاقية

في سياساتها فتبادر إلى التخفيف من وزر ارتكاب جريمة التطهير العرقي باللجوء إلى اعتماد قاموس الضحايا الزاخر على الدوام باللغة الدفاعية التي تقطع الطريق على أي قابلية للاعتراف بمأزق السكان الأصليين؛ لأن هؤلاء باتوا مجردين من إنسانيتهم في عملية تطهير عرقي يظل المجتمع الاستيطاني دائباً على بذل أقصى الجهود لإنكارها.

لعل الأكثر حسماً هو أن بيرازو كان من شأنه أن يهتدي، لو تحمل عناء البحث في المشكلة - غير أن المحافظين الجدد يرون البحث مؤامرة تعددية ثقافية، على ما يبدو - إلى ما لا يقل عن ثلاث دراسات تزعم أن كتب الأطفال الإسرائيليين المدرسية ملأى بـ "السم". الدراسة الأولى نشرها دانييل بارتال من جامعة تل أبيب وتتوصل إلى استنتاج "أن الكتب المدرسية الإسرائيلية تقدم وجهة النظر القائلة بأن اليهود منخرطون في حرب مبررة، بل وحتى إنسانية، ضد عدو عربي يرفض قبول يهود إسرائيل والاعتراف بحقهم في الوجود"(14). مثل كتب مدرسية أمريكية فيما يخص الهنود (الحمر)، "تواصل الكتب المدرسية الإسرائيلية تقديم اليهود بوصفهم مجتهدين، شجعاناً وعازمين على دحر الصعوبات الكامنة في "تحسين البلاد بأساليب لا يستطيع العرب اعتمادها"(15). ويبين بارتال أن الكتب المدرسية تنمّط العرب بوصفهم "غير متنورين" دون مستوى البشر، قَدَريين، غير منتجين ولا مبالين... "تركزت الرسالة على أن الفلسطينيين بدائيون أهملوا البلاد فبارت الأرض"(16). لا همَّ للعرب - حسب الكتب المدرسية - سوى "إشعال الحرائق، القتل، والتدمير؛ إضافةً إلى أن إلهاب مشاعرهم بالغ

السهولة"، وهم موصوفون بالعبارات التالية: "قَبَليون، مفطورون على الثأر والانتقام، شاذون، غريبو الأطوار، فقراء، مرضى، قذرون، صاخبون، ملونون"[17].

دراسة أخرى لإيلي بوده من الجامعة العبرية تقول: إنه "على الرغم من أن تغييرات معينة في الكتب المدرسية الإسرائيلية تتم ببطء، فإن مناقشة الهوية الفلسطينية القومية والمدنية لا تتم مقاربتها على الإطلاق... "والواضح استثنائياً هو غياب أي نقاش لتوجه الفلسطينيين نحو المناطق [المحتلة]"[18]. طالب ثانوي إسرائيلي في السابعة عشرة من العمر يقول: إن "كتبنا تقول لنا أساساً إن كل شيء يفعله اليهود رائع ومشروع والعرب مخطئون وعنيفون ويحاولون إفناءنا"[19]. وملاحظة الطالب تتأكد بكتاب **وجه قبيح في المرآة** الصادر سنة 1999 لأدر كوهن الذي يقدم بعض النتائج المقلقة لإحدى عمليات المسح: " 75 بالمئة" من الأطفال اليهود في الصفوف الرابع والخامس والسادس بإحدى مدارس حيفا، "وصفوا "العربي" على أنه قاتل، مولع بخطف الأطفال، مجرم وإرهابي. 80 بالمئة قالوا إنهم يرون العربي شخصاً قذراً ذا وجه مخيف. 90 بالمئة من التلاميذ عبروا عن اعتقادهم بأن الفلسطينيين لا يتمتعون بأي حقوق في الأرض بإسرائيل أو فلسطين"[20].

بين كتب الأطفال الـ 1700 المنشورة منذ عام 1967، "اكتشف" كوهن" 520 كتاباً متضمناً نعوتاً سلبية مذلة للفلسطينيين... 66 بالمئة من الـ 520 تضفي صفة الضعف على العرب؛ 52 بالمئة

تصفهم بالأشرار؛ 37 بالمئة بالكذب؛ 31 بالمئة بالشَّرَه والطمع؛ 28 بالمئة بالذبذبة (ازدواجية الوجه)؛ 27 بالمئة بالخيانة والغدر، وإلخ.."[21]. يضاف إلى ذلك أن كوهن "أحصى النعوت التالية المستخدمة لتجريد العرب من الصفة الإنسانية: صفة قاتل استُخدمت 21 مرة؛ ثعبان، 6 مرات؛ قذر، 9 مرات؛ حيوان شرير، 17 مرة؛ متعطش للدم، 21 مرة؛ تاجر حروب، 17 مرة؛ عنصر اغتيال، 13 مرة؛ مؤمن بالخرافات، 9 مرات؛ وسنام جمل، مرتين"[22]. لم يختم كوهن دراسته بأي فراغ لأنه:

> *يستنتج أن مثل هذه النعوت الملصقة بالعرب إن هي إلا جزء لا يتجزأ من قناعات وثقافة طاغية على كتب الأدب والتاريخ العبريين. يكتب أن المؤلفين والكتاب الإسرائيليين يقرون بتصويرهم المتعمد للشخصية العربية على هذا النحو، ولاسيما لجمهورهم الأصغر سناً للتأثير في نظرتهم في وقتٍ مبكر إعداداً لهم للتعامل مع العرب*[23].

إذا كان هدف هذه الكتب هو إعداد شباب إسرائيل لـ "لتعامل" مع العرب، فإن العملية ناجحة على ما يبدو. فالاحتلال الإسرائيلي الوحشي مستمر بعد خمس سنوات مع الإصرار المألوف على سلسلة اغتيال الأطفال، دفن الأحياء، نسف البيوت، تدمير المحاصيل، مصادرة الأراضي، الاغتيالات دون محاكمة، حالات منع التجول، الإذلال، الاغتصاب، التعذيب، ومصادرة الممتلكات، المترتبة جميعاً على إغراق الأطفال الإسرائيليين بنزعة تجريد العرب من الإنسانية.

obeikandi.com

لا يجد بيزارو أياً من هذه الحقائق جديرة بالذكر لأن أحد أهداف مقاله هو إقناع الأمريكيين بأن الفلسطينيين عاجزون عن تحقيق السلام، مما يبقي الإسرائيليين أحراراً في استيطان الأراضي الفلسطينية إلى أن يتم استكمال إخضاع الفلسطينيين أو طردهم. وأكثرية الأمريكيين ليست متواطئة مع هذا النوع من العنصرية وحسب، بل تساعد على إعداد فضاءات مناسبة لانتشارها عبر تحدي النظرة المؤيدة لإسرائيل التي تروج لها أكثرية المواد الإعلامية. يضاف إلى ذلك أن بيزارو، إذ يسوغ الوحشية الإسرائيلية باستحضار العنف الفلسطيني، لا يكتفي بالتعرف على مشكلة حقيقية في المجتمع الفلسطيني وإدانتها؛ إنه يضخم المشكلة بوصفها دليل تخلف ثقافي ونزعات عنفية فطرية. بعبارةٍ أخرى، يمارس بيزارو الشيء نفسه الذي يدينه في الكتب المدرسية الخيالية التي يناقشها. وعلى أي حال، لم يكن ملزماً بالعودة إلى أي من دراسات بار. تال، بوده، أو كوهن ليهتدي إلى أدلة متجذرة على عنصرية إسرائيلية ينكرها كلياً، لأن تلك الأدلة وفرها قبل عامين رئيس دولة إسرائيل موشي كاساف قائلاً: "ثمة هوة كبيرة بيننا وبين أعدائنا – ليس فقط على صعيد القابلية بل في مجالات الأخلاق، الثقافة، قدسية الحياة، الضمير... [الفلسطينيون] أناس لا ينتمون إلى قارتنا، إلى عالمنا، بل هم من مجرّة أخرى مختلفة بالفعل"[24].

أرجو أن ينام الإسرائيليون قريري العيون لأن كتب الأطفال عندهم تؤدي وظيفتها بنجاح!

openkandil.com

الخير في مواجهة الشر: محاكمة القرن الجديد

العرب شر. لا الأقلية العربية. لا بعض العرب. لا إحدى الأقليات العربية. جميع العرب، بلا استثناء، أشرار، بمن فيهم المسنون، الأطفال، والمشوهون المعطَّلون. أما الأمريكيون فهم خير. لا أقلية أمريكية معينة. لا بعض الأمريكيين. لا الأكثرية من الأمريكيين. الأمريكيون جميعاً، بمن فيهم فرسان التفوق الأبيض، ميليشيات الأدغال الخلفية، ومحترفو الابتزاز في الشركات. ذلك هو ما يتعلمه سائر الأطفال الأمريكيين، أقله، أولئك الذين يبالون بمتابعة الأخبار (خصوصاً نشرات فوكس نيوز) أو قراءة أعمدة الرأي في العديد من الجرائد.

لعل السمة الأكثر إثارة للخطاب الشعبي الأمريكي اليوم هي نزوع كُتّاب التيار الرئيس إلى نسيان مجموعة من الصفات والنعوت. ونتيجة لذلك باتت حفنة من الإرهابيين تمثل 300 مليون عربي. ففي أمريكا اليوم التي تبدو مبتلية بنوبة أصولية دينية مثل أي دولة إسلامية... (وأكثر من الأنظمة المعادية للحركات الإسلامية في الأردن، الجزائر، ومصر) أصبح الخطاب العام مفرطاً في طفوليته حتى إن جل برامج الكلام لاذت باستنفار جيش من البلهاء الذين يلقون المواعظ حول واجبنا الأخلاقي المتمثل بهزيمة الشر. والشر لا يعني، بالطبع، إلا **العرب**. أو يشير تلميحاً - أقله - إلى أنه محصور بالعالم الإسلامي، في حين تبقى الولايات المتحدة متمتعة بالاحتكار الإلهي للخير.

obeikandi.com

في الحقيقة كان غزو العراق معطوفاً - إلى حدٍّ كبير - على إعادة استحضار لغة الاستعمار الأوربي في القرن التاسع عشر. فالكلام عن الأعداء - حيث **الأعداء** هم جميع من يبرهنون على أنهم عقبة أمام شهوة الولايات المتحدة إزاء الثروات الأجنبية - بوصفهم شراً جزء أساسي راسخ في القاموس الأمريكي، يعود تاريخه إلى خطاب كوتون ماذر(*) المترع بالسموم عن أقوام أمريكا الشمالية الأصلية (التي أضفى عليها لقب "الكنعانيين") والداعي إلى ضرورة إنجاز عمل الرب بإبادتها. وإضافةً إلى العراقيين يجري وضع الفلسطينيين في خانة الشر عبر هذه الصورة المجازية التوراتية الجديدة التي يروجها أمريكيون تواقون إلى فرض خيرهم على من هم أقل تنوراً.

جرى التعبير عن مثل هذا الخطاب بكثير من الحيوية من قبل قادة أمريكيين كُثر منذ وصول إدارة بوش الثاني إلى السلطة. ففي 2002 أعلن المدعي العام آنذاك جون آشكروفت دون أن يرف له جفن أن "الإسلام دين يطالبك الرب فيه بإرسال ابنك إلى الموت من أجله. أما في المسيحية فإن الرب يرسل ابنه هو ليموت من أجلك"[25]. ملاحظة آشكروفت، وقد قيلت في مجال السعي إلى الفصل بين الكنيسة والدولة، تسهم في ترسيخ مفاهيم الخير مقابل الشر من جهة وفي التمهيد للخطاب الضروري لوجود مثل هذه المفاهيم من جهة ثانية. أسلوبه يفضح أي ادعاء محتمل لسوء الاقتباس (وهو أمر حاوله آشكروفت بالفعل بعد تسبب تعليقاته بنوع من الجدل

(*) كوتون ماذر: قس بيوريتاني من القرن السابع عشر.

السـجـالي). إن كلمـة دين تنطوي على مـعـانـي الجـمـود، النظام القضـائي، الإيديولوجية التي لا يستطيع أتباعها تحدي العقائد الجامدة (الدوغما) (أو هم محرومون من فرص القيام بذلك). أما الإيمان فتشي، بالمقابل، بالتسليم بشيء غير قابل للفهم ولكنه سماوي، إلهي، شيء أثيري جميل، شيء جدير بالاعتناق.

ليس آشكروفت وحيداً في نظرته الثنائية الخطرة إلى العالم. فزعيم الأكثرية النيابية السابق توم ديلاي، أحد مؤيدي النزعة التوسعية الأمريكية، ألقى خطاباً موجزاً في 2004 استخدم فيه كلمة شر عشرين مرة تقريباً لوصف العالم العربي. هاكم بعض الأمثلة:

- "الشر لن يصمد".
- "الشـر الذي نواجهه اليوم يأتي بصيغ جديدة، ولكنه ليس جديداً".
- "الشر الذي دأب على إرهاب الأجيال السابقة بالمحرقة والغولاغ نفسه أرهبنا بهجمات 9/11".
- "ليست الحرب على الإرهاب إلا حرباً ضد الشر".
- "في هذه الحرب التي نخوضها - وهي حرب، إياكم الوقوع في الخطأ!، يخوضها الخير ضد الشر. كما قال الرئيس بوش يوم 9/11، سوف لن نميز بين الإرهابيين والدول التي تساعدهم وتؤويهم"(26).

تنطوي الفقرة الأخيرة على أهمية استثنائية لأن ديلاي يقر فيها بأنه لا يميز بين **الإرهابيين والعرب**، لاغياً الحاجة إلى قيام الليبراليين بإبراز حقيقة أن المحافظين الجدد يصرون على إضفاء صفة التجانس على مجتمعات متنوعة. يخبرنا ديلاي بأنه يضع العالم العربي كله في خانة واحدة ويحل المشكلة.

على الرغم من أن هذا الخطاب بنبرته ما قبل الألفية تبدو مثيرة للغضب بالنسبة إلى غير المؤمن، فإنه ليس فريداً. آخرون، منهم آشكروفت، عضو مجلس الشيوخ ريك سانتوريوم (جمهوري - بنسلفانيا)، زعيم الأكثرية النيابية الأسبق ديك آرمي (جمهوري - تكساس)، ورئيس الجمهورية نفسه، تفوح منهم جميعاً روائح نظرة عالمية متأثرة (أو مصانة) بقيود النزعة الحروفية التوراتية. وبالتالي فإن الجميع مذنبون يتحملون مسؤولية التنظير للعالم من منطلقات ثنائية (مانوية): من منطلقات صراع متواصل بين قوى الخير وقوى الشر، حيث تحتل الولايات المتحدة دائماً ساحة الخير المعرَّضة للخطأ ولكن المعصومة أخلاقياً. مرعب، بأخف التعابير وألطفها، أن تكون سياسة أمريكا الخارجية أقل تعقيداً من حبكة **روكي 4**، غير أننا مازلنا ملزمين بمعاينة مدى مساهمة عنصرية معاداة العرب في تمكين هذه النظرة إلى العالم من الصمود.

قبل كل شيء، ليست عنصرية معاداة العرب واضحة فقط في فكر المحافظين الجدد؛ إنها مركزية. وحين يقر الأمريكيون - من أي اتجاه سياسي - بهذه الحقيقة، فإنهم يكونون - أقله مداورة - متورطين فيها لأن مخاوفهم من العرب أو افتراضاتهم حول دونية

العرب تضمر شرعنة خطط وسياسات من إملاء تلك المخاوف والافتراضات. ثانياً، من غير المفيد فحص أي نمط من أنماط العنصرية دون العمل أيضاً على تحليل افتراضاتها؛ وفيما يخص عنصرية معاداة العرب، نرى أن افتراضاتها تقودنا على نحوٍ مباشر إلى فكرة أن أي شيء يمت بصلة إلى العرب أو الإسلام جدير بالإخضاع لقيم الغرب الليبرالية، أو يستحق إبداله بهذه القيم. والنزوع إلى شمل جميع العرب تحت عنوان "شرير" حتى حين لا يكون الشمول متعمداً، ينشأ من هذه الافتراضات. أخيراً، لصيغة العرب بوصفهم شراً سوابق تاريخية كثيرة. ومع أننا نحسن صنعاً حين نعترف بأن العنصرية الأمريكية معقدة ودائمة التطور، فإن أحد تجليات هذه العنصرية هو وصم فئة كاملة بأنها "شريرة" حين يكون ثمة ما يمكن كسبه من مثل هذا الوصم (مثل: استغلال عمل الزنوج، الاعتماد على كدح الفلاحين المكسيكيين، أو جهود منتجي النفط الأجانب).

وبالمثل، فإن مشروعاً قائماً على إلغاء إنسانية الإنسان هو الذي بقي - بطريقة أو أخرى - مطرداً عبر التاريخ الأمريكي من أوله،[27] على الرغم من أن العنصرية الأمريكية ظلت على الدوام تتمفصل على نحوٍ مختلف حين تكون جماعات مختلفة وأفراداً متباينين هدفاً لها حتى حين تقوم على تأملات مفيدة حول العنصرية مثل مقولات كوامي أنتوني آبيا عن العنصرية الطارئة أو الخارجية. لعل أفضل تجليات ذلك الاطراد هو تعبير شر. قديماً كان العبيد أشراراً بوصفهم ورثة قابيل. والهنود (الحمر) كانوا، يوماً، أشراراً جراء وثنيتهم. والمهاجرون من سائر الأعراق (ولكن

ذوو البشرة السمراء خصوصاً) كانوا أشراراً لا لشيء إلا لأنهم غرباء. والآن العرب أشرار لأنهم، جميعاً، إرهابيون، ولأن لهم مكاناً مناسباً، بالانطلاق من دينهم وموقعهم الجغرافي، في المخططات المسيحانية والمهدوية التي قامت يوماً على إيواء عبيد وسكان أصليين. وكلمة أشرار، تبعاً لناطقها، مازالت مستخدمة أحياناً لوصف الزنوج لأنهم ميالون إلى اغتصاب النساء البيضاوات، المكسيكيين لصوص كسالى عمل (تناقص لا يبدو لافتاً لنظر أحد)، واليهود لأنهم يسعون إلى السيطرة على العالم.

كان ديلاي استثنائي اللؤم حين قال: إن العرب - دون تمييز - أشرار. في 2003، خلال تعليقات ألقاها في الكونغرس، وصف الفلسطينيين بعبارة "أناس عنيفون" يضحكون لمقتل الأطفال الإسرائيليين، مستخلصاً "إذا لم يكن هذا عنفاً، فما هو؟". وبعد ذلك لاحظ "أن [الفلسطينيين] مازالوا أعداء للعالم المتمدن ومازال قنصهم واستهدافهم على هذا الأساس واجباً". ومناشداً زملاءه أعضاء الكونغرس أن يبادروا إلى "الالتحاق بركب إسرائيل التي تتصدى للشر ببطولة"، أضاف أن السؤال المهم الوحيد هو "ما إذا كان القادة الفلسطينيون سيقفون في صف العالم المتمدن ضد الشر، أم أنهم سيخفقون في ذلك مثل أسلافهم"[(28)]. وحين يطلق مثل هذا الكلام، يضع ديلاي نفسه، من غير قصد، في خانة تجار العبيد، مستوطني الحاميات المحصنة، ولصوص الأراضي؛ لأن الخطاب المهيب لتجارة العبيد، استيطان الحاميات، وسرقة الأراضي يطغى على أخلاقيات كلمته وافتراضاتها. غير أن الجانب الأشد إثارة للأسف حول الخطاب ليس كونه مصنفاً لديلاي

عنصرياً لاختزاله شعباً كاملاً إلى "أشرار"، بل تمخضه عن وضع المجتمع الأمريكي في خانة العنصرية؛ لأن ذلك الخطاب ناشئ في إطار حوار مقبول على أعلى مستويات الحكم.

من الواضح أن الإيمان بوجوب "قنص" العرب لأنهم "أشرار" و"غير متمدنين" لا يمكن أن يتناغم مع الجمهور إلا إذا سبق لذلك الجمهور أن قام بتجريد العرب من إنسانيتهم فبات يرى اغتيال العرب دون تمييز مسوَّغاً استراتيجياً. من المتوقع، إذن، أن نعثر على ما لا يحصى من أمثلة تجريد العرب من إنسانيتهم في وسائل إعلام المحافظين الجدد. في مادة نشرها على موقع **فرونت بيج ماغ دوت كوم** لديفد هوروفيتز، كتب ستفن بلوت شاجباً "البربرية الفلسطينية" يقول: "من الدارج الآن في العديد من الأوساط تقديم الوحشية الشرق أوسطية بوصفها جزءاً من نوع من "حضارة حرب". ليس صحيحاً. فليس الشرق الأدنى (كذا)، في الحقيقة، إلا حرباً على الحضارة كلها"(29). مرةً أخرى نجد أنفسنا بصدد تصنيف المجتمعات في خانتي "البرابرة" و"المتحضرين"، ويبدو أن الولايات المتحدة تبقى دائماً أمة متطلعة إلى الأمام، غير أنها أخفقت - مع ذلك - في اعتماد السابقة الاستطرادية التي أرساها كوتون ماذَرْ. أولئك الذين يحلو لهم أن يستبعدوا خطاب **بلوت** بوصفه هراء يمينياً متطرفاً يمكن دعوتهم إلى أن يتذكروا، ولو للحظة، أن الديمقراطيين من وودرو ولسن إلى لندون جونسون فبِلْ كلنتون، مذنبون أيضاً في جريمة استخدام الخطاب نفسه مغلفاً بلغة أقل صراحة. لعل من الأكثر تحلياً بالحصافة أن يتم النظر إلى الخطاب بوصفه ركناً من أركان فلسفة السياسة الخارجية

الأمريكية (التي طُورت أساساً بوصفها خطة داخلية تجاه السكان الأصليين).

عند النظر إلى طغيان خطاب الخير في مواجهة الشر في الولايات المتحدة، أجدني باستمرار متذكراً قيام بوش المتكرر باستحضار الرب ليساعده على سحق الشر في العالم؛ قيام ديلاي بإضفاء الصفة الجوهرية على مقولة أن العرب هم دون البشر؛ النداءات المتكررة الصادرة عن وسائل الإعلام الرئيسة الداعية إلى استئصال البربرية العربية؛ وأخيراً، عملية إضفاء الصفة المؤسساتية على هذه المواقف في الوعي ولغة الحوار السياسي الأمريكيين. وفي الحرب بين الخير والشر، يبدو أن الشر هو الموشك على الانتصار.

القَبَلية والقدر المكتوب

مع أن الخطط والسياسات ليست - دائماً - أطول عمراً من الأجيال، فإن الخطاب كثيراً ما يكون كذلك. وخطاب الجوهرية الأمريكية - معطوفاً على مفاهيم ذات علاقة بدونية الأجانب عاش زمناً لافتاً بطوله منذ زمن الاستيطان اليورو - أمريكي. لمطرب موسيقا الراب الفلسطيني الأمريكي الموهوب الشيخ الحديدي أغنية بعنوان "أشجار الزيتون" ينتقد فيها الاستيطان الإسرائيلي ثم يقول: "في قاموسي ليس ذلك إلا قدراً مكتوباً/ كنت أظن انه أسلوب من القرن الماضي". إن السخرية التي تميز أداء الشيخ الحديدي لهذه الأبيات تكشف عن أن القدر المكتوب إن هو إلا إيديولوجية حية، يمكن العثور عليها بسهولة في المناطق المحتلة،

ولكن على منبر مجلس النواب الأمريكي أيضاً حين يناقش الساسة محاسن اجتياح العراق، تقديم المزيد من المساعدات إلى إسرائيل، وخططاً داخلية مثل شؤون الهنود (الحمر) وقانون الهجرة. وقد عبر ديك آرمي، آخر المطاف، عن الفذلكة الأكثر جذرية للقدر المكتوب عن عرض كريس ماثيو في 2002، حين كان لا يزال زعيماً للأكثرية النيابية، قائلاً: "ليت إسرائيل تستولي على الضفة الغربية كلها!"[30].

لتحقيق المزيد من التماسك بين ماضي أمريكا وحاضرها، يمكننا العودة إلى المعلق الراحل ستفن فنسنت الذي أعلن قبل موته أن "العقبة الكبرى في انبثاق عراق مسالم، مستقر وديمقراطي متمثلة بولاء شعبه المستمر لعاداته وانتماءاته القبلية"[31]. وإذا بدا هذا الرأي منتمياً إلى عالم انتربولوجيا القرن التاسع عشر، فإن السبب يعود إلى أن فنسنت أراده كذلك. فقد أكد لنا هذا أن ليس ثمة أي أستاذ انتربولوجيا حديث "متعدد الثقافات".

> *يمكن أن يعيش في ظل نظام يسجن الفرد داخل شبكة محكمة من علاقات القرابة، حيث النسب - لا المواطنة - يحدد موقع المرء في المجتمع، وحيث حرية أي امرأة، تحقيقها لذاتها وحياتها رهينة أبشع المفاهيم: "الشرف". زيارتاي للعراق أقنعتاني بالفعل أن روابط الدم والعائلة تكمن في جذر حل العلل التي تعاني منها الأمة - العنف اللاعقلاني، تعدد الأزواج، التعصب الديني، وعجز حتى المتعلمين عن الاحتضان الكامل لمبادئ السلوك والحكم المجرد، هذا العجز الذي قد يكون الأكثر إثارةً للقلق*[32].

خطاب فنسنت مزعج على العديد من المستويات، غير أن ادعاءه المعرفة شديدة الإحباط. زعم أنه يعرف ما يكفي عن ثقافة العراق، سياسته، وتاريخه ليدين عنف أهله المتأصل، تعدد الأزواج فيه، التعصب، ونقص الكفاءة الفكرية، مستخلصاً أن هذه المشكلات كانت أعباء مركزية على المجتمع العراقي منذ قرون. وتاريخ الإمبريالية الأوربية والأمريكية يبين لنا أن عملية تجريد شعوب كاملة من إنسانيتها تسبق عملية التدخل في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية عادةً، وبالتالي فإن زعم فنسنت القائل إن العراقيين الحاليين برابرة لا رجاء فيهم إن هو إلا نوع من إعداد الفضاء الاستطرادي الذي يوفر إمكانية تسويغ المطامع الأمريكية في العراق من منطلقات إنسانية.

في الحقيقة، كان فنسنت قادراً على تحويل اتجاه تحليله نحو الداخل. هاكم الوصف التالي لأمراض العراق الاجتماعية: "العنف اللاعقلاني، تعدد الأزواج، التعصب الديني، وعجز حتى المتعلمين عن التبني الكامل لمبادئ السلوك والحكم المجردة، هذا العجز الذي قد يكون الأكثر إثارةً للقلق". من المؤكد أن إخفاق كاتب قام - بعد زيارتين لأحد البلدان الأجنبية - بوصف جملة المشكلات الاجتماعية لذلك البلد، في التعرف في البلد الذي وُلد، ترعرع وتعلم فيه، على المشكلات نفسها، إشكالي حقاً. وأسلوب فنسنت القائم على المبالغة المثقل بعبارات من قبيل "المكر الارتدادي المتقهقر للثقافة العربية"[33]، يلقى آذاناً صاغية في الولايات المتحدة، حيث يجري قصف الأمريكيين بحشد متزايد العدد من الخبراء البيض في شؤون العالم العربي ممن ليسوا مسلمين، لا

يعرفون اللغة العربية ولا علاقة لهم بالبلدان العربية ربما باستثناء ما يلتقطونه خلال زياراتهم العابرة حيث يمضون أوقاتهم مواسين أعداداً من الجنرالات الأمريكيين والإسرائيليين.

ومع أن فنسنت تخلى عن سياسته المحافظة الجديدة منقلباً إلى نصير للحركة النسوية في الأمور ذات العلاقة بالعالم العربي، فإنه ظل، حتى الكلمات التي استخدمها للتعبير عن خطابه، غارقاً حتى الأذنين في مستنقع خطاب النزعة التوسعية الأمريكية الكلاسيكي. وقد تعرض هذا الخطاب لسلسلة متصلة من التحولات على امتداد التاريخ الأمريكي تبعاً للظروف المعاصرة، إلا أنه بقي على حاله في الأساس وإن تمت على نحوٍ حتمي إعادة قولبته في لحظات ليشكل تسويغاً ناجحاً لأي ظلم داخلي أو تدخل خارجي. فيه يجري توظيف نقد النزعة القبلية لاختزال شعب كامل إلى قطيع متجانس من العدوانيين (أو البرابرة أو الوحوش). ومن ثم يتم، تبعاً لمنطق الخطاب الخاص، إضفاء صفة الوهم على أي جريمة يجري استحضاره للعقلنة. ليس نقد فنسنت اللاذع للنزعة القبلية إلا أنموذجاً مألوفاً لهذه الظاهرة.

التعميم ممارسة شائعة أخرى في قاموس العنصرية المعادية للعرب. وهذه الممارسة يجسدها أستاذ مساعد في كلية طب جامعة براون يدعى أندرو جي بوستوم في مقالة معروضة على موقع **فرونت بيج ماغ دوت كوم**. مستنداً إلى مقتل نيكولاس بيرغ في العراق يكتب بوستوم إن "مثل جرائم القتل هذه متوافقة مع ممارسات الجهاد المقدسة، جنباً إلى جنب مع جملة المواقف

الإسلامية من سائر الكفار غير المسلمين ولاسيما اليهود، تلك المواقف التي تعود إلى القرن السابع"(34). لا تنبئنا محاكمة بوستوم، عدا عن خطئها الصارخ، بأي شيء على الإطلاق عن العرب، الإسلام، اليهودية، المسيحية، الحرب في العراق، أو أي قضية أخرى جديرة بالمناقشة. يتعامل بوستوم، بالأحرى، مع بيرغ كما لو كان تمثالاً من القش قادراً على تأكيد صحة التعبير عن عنصرية معادية للعرب موجودة سلفاً.

خطاب بوستوم لا يفيدنا بأي شيء لأن آلاف المجادلين استهلكوه في الآلاف من البرامج والمشاريع. يزعم مثلاً أن "حملات الجهاد التي شنتها جيوش المسلمين، على امتداد القرون، من شبه الجزيرة الآيبيرية إلى شبه القارة الهندية، ضد الكفار من اليهود، المسيحيين، الزرادشتيين (المجوس)، البوذيين، والهندوس كانت مصحوبة بسلسلة من المذابح المنطوية على فيض من عمليات حز الرقاب وقطع الرؤوس"(35). يستطيع المرء أن يرد على بوستوم قائلاً: حسناً، هب أن التاريخ الإسلامي زاخر بأمثلة كثيرة من الغزوات الظالمة وجرائم الاغتيال الفردية ضد غير المسلمين. فماذا إذن؟ التاريخ الإنساني كله مترع بأمثلة مشابهة، مثله مثل تواريخ سائر الجماعات الدينية الكبرى على كوكب الأرض. ليس سجل المسيحيين مفتقراً إلى صنوف جرائم القتل. فحين يتذكر المرء الحملات الصليبية، محاكم التفتيش الإسبانية، الإجهاز على الملايين من السكان الأصليين في العالم الجديد، المحرقة (الهولوكوست)، العبودية، الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، استعمار جنوب المحيط الهادي، إفريقيا، وآسيا، وحروب إبادة

الجنس في الكونغو، أستراليا، ويوغسلافيا، فإن المسلمين يبدون، فجأة، دعاة سلام أنموذجيين. يستطيع المرء أن يجادل قائلاً إن مقترفي جرائم القتل هذه لم يكونوا مسيحيين **حقيقيين** - ربما أغبى الأعذار التي يمكن للمرء أن يسوقها تبريراً للإجرام - غير أن ذلك لا يهم: فمقترفو الجرائم كانوا يتصرفون بوصفهم مسيحيين، بل وكانوا، في حالات كثيرة، قادرين على اقتباس آيات من الكتاب المقدس لتسويغ سلوكهم. من المعيب فكرياً أن نزعم أن صيغ تبرير القتل المسيحية مجردة من سياقاتها في الكتاب المقدس مع التأكيد في الوقت نفسه أن نظيرتها الإسلامية متجذرة في صلب الدين.

بالمثل، يستطيع المرء أن يلتفت إلى اليهود فيجد حالات خارقة للعادة من العنف. ففي اليوم الذي قُتل فيه نيكولاس بيرغ، كان مستوطنون يهود في الضفة الغربية وقطاع غزة يسطون على أراضٍ مغتصبة، يشربون ماءً مسروقاً، يسوقون سياراتهم على شبكة طرق مطبوعة بالطابع العنصري، ويتابعون عمليات اغتيال المدنيين الفلسطينيين - كل هذا باسم اليهودية، بالطبع. من المعروف أن اليهود منخرطون في أحد أبشع عمليات التطهير العرقي على امتداد الأعوام الستين الأخيرة. وكي لا ننسى يجب التذكير بأنهم تورطوا أيضاً في عمليات التطهير العرقي قديماً حين أمر الرب يشوع (Joshua) باستئصال سكان الأراضي المقدسة الأصليين، وهو أمر منقوش في النصوص المقدسة اليهودية والمسيحية. فلسفياً ثمة قدر مساوٍ (إن لم يكن أكثر) من الأدلة التي تدين اليهودية والمسيحية بالعنف مثل الإسلام.

ما فعلته في الفقرة السابقة لا يعدو كونه إيصال خطاب بوستوم إلى نتيجته المنطقية. فأنا لا أصدق، ولو لثانية واحدة، أن اليهود، المسيحيين أو المسلمين عنيفون بالفطرة جراء معتقداتهم الدينية. الحمقى وحدهم يطرحون مثل هذه الآراء، لأن الجميع يستطيعون أن يهتدوا إلى أدلة عنف في أي عقيدة إنسانية سبق لها أن وُظفت من قبل بشر (تذكروا شكوى فالتر بنيامين النادبة قائلاً: "ما من وثيقة من وثائق الحضارة إلا وهي في الوقت نفسه وثيقة بربرية"). غير أن العنصريين يصرون على أن يظلوا انتقائيين في استحضار مثل هذه الأدلة شهادات حمقاء على بربرية متأصلة. من الأفضل التركيز على العنف المؤسساتي المنظم بهدف وضع حد له مع الانكباب في الوقت عينه على مناقشة المساهمات التي قدمتها جماعات دينية في عملية تحسين أحوال كوكب الأرض - أتصور أن بوستوم مدين بشهادة الطب التي حصل عليها لعبقرية المسلمين في الرياضيات كما لمساهمات ابن سينا الطبية بكل تأكيد.

إلا أن بوستوم لا يركز على حالات فردية من عنف المسلمين لأن ذلك يناسب برنامجه العنصري لأنه قائم على الحقيقة اليقينية المتمثلة بتفوق الغرب على العرب، تلك الحقيقة المستخلصة بوضوح وعلى نحوٍ لا ينطوي على أي مفاجأة دون أي أثر للتحليل المنطقي. ويبرهن بوستوم مرةً أخرى على أن الموضوعية إن هي إلا ظاهرة ذاتية لأنه لا يقول شيئاً عن الطفرة الراهنة للأصولية المسيحية التي اجتاحت الولايات المتحدة، ولاسيما رئيس جمهوريتها ونائبها العام، وهي المسؤولة، أقله جزئياً، عن غزو دولة ذات سيادة دون أي استفزاز، غزو تمخض عن آلاف الضحايا المدنيين ومليارات

الدولارات من الخسائر في الممتلكات، والذي سيكون مستقبلاً، دون أدنى شك، سبباً لأعداد لا تحصى من الحالات السرطانية. بالطبع، لا يقول بوستوم أي شيء عن هذه الأمور لأنه ذو مصلحة إيديولوجية في دعم الغزو عن طريق تجريد الناس الذين يقتلهم الجنود الأمريكيون من إنسانيتهم، في مقاربة أكل الدهر عليها وشرب إذ كان قد تم إيصالها إلى مستوى الكمال في تاريخ بعيد من ماضي الولايات المتحدة خلال توسعها غرباً.

سياقات إرهابية

توفي العم سليم في 2004. كان إنساناً رائعاً لم يتعلم من اللغة الإنجليزية سوى كلمتي: **اجلس واشرب**. كان العم من المدرسة القديمة. حتى الوفاة، حافظ على ثقافته البدوية وظل يرتدي **دشداشته** الرمادية مع **كوفية** باللونين الأسود والأبيض. أقمت في منزله فصلين صيفيين مختلفين بمادبا الأردنية، تلك البلدة التوراتية المذكورة في العهد القديم الواقعة على مسافة نحو 20 ميلاً إلى الجنوب من عمان. في إقامتي الأخيرة معه، خلال صيف 2003، بدا العم، وهو شخص لطيف لم يسبق له أن صفع أياً من أولاده الستة، متدهور الصحة. بعد نجاته من السرطان أصيب بالسكري والتهاب المفاصل. ومع ذلك ظل يومياً يتسلق التلة إلى الكوة الصغيرة العائدة له، حيث كان يبيع كل شيء من طناجر الطبخ إلى جبنة الماعز. مشيت معه ذات صباح وعلقت على الطقس كل بضع لحظات حين كان يقف ليرتاح، وكبرياء ثقافته تمنعه من الاعتراف بعدم قدرته على تسلق التلة، كما كان يفعل يومياً خلال السنوات الستين

الماضية، للوصول إلى دكانته الصغيرة. مازلتُ أحتفظ بكوفية أعطانيها في اللقاء الأول قبل سنوات عديدة؛ تفوح منها رائحة دخان السجائر وعطر زوجه.

توفي العم بعد بضعة أشهر من عودتي إلى الولايات المتحدة. ما إن سمعت النبأ حتى أعلنت الحداد لأيام، متذكراً غير مرة ما كان قد قاله لي قبل السفر: "قلبك وتاريخك باقيان هنا. نحبك كما تحبنا". كان دائم التعبير عن عواطفه عبر تزويدي المتكرر، انسجاماً مع أفضل تقاليد الكرم العربي، بكل ما كنت بحاجة إليه لأستمر في حب جذوري. لكم أن تتصوروا، إذن، مدى الألم الذي سحق قلبي حين جرى تذكيري لدى عودتي إلى الولايات المتحدة بحقيقة أساسية عن هذا العم: كان إرهابياً.

لم يسبق للعم أن نسف أي حافلات ركاب أو اختطف أي سياح. لم يكن يملك أي كاتيوشا أو معدات تصنيع متفجرات. من جميع النواحي، كان، في الحقيقة، أنموذج داعية السلام الأفضل، شخصاً لم يتورط في أي حادث عنف طوال حياته وإن لم ينخرط في الدعوة إلى اللاعنف. غير أن العم كان مع ذلك - بنظر العديد من زملائي الأمريكيين - إرهابياً لا لشيء إلا لأنه كان عربياً.

لابد لي من أن أقدم اعترافاً قبل مواصلة النقاش حول أساليب توظيف كلمة **الإرهاب**، التي أمقتها، في المجتمع الأمريكي. أظن أن هناك مبالغة في الإكثار من استخدام الكلمة مشحونة بحماسة مفرطة، وهي تحمل في طياتها نبرة عنصرية مع قابلية مدهشة لتجريد أولئك الذين يوصمون بها (وهو أمر ذو علاقة

وثيقة بفرط استخدامها الراهن في الولايات المتحدة) من صفتهم الإنسانية. أجدني، بدوري، مفعماً بالشك حول أن تكون الكلمة، مثل **اللاسامية**، عرضة للإكثار من الاستخدام وصولاً إلى احتمال أن تكف عن الدلالة على أي شيء عدا عن ظاهرة قاتلة موجودة بصيغ مختلفة في طول العالم وعرضه.

سأستغل هذه المناسبة أيضاً لأعلن أنني لن أبادر في أي جزء من هذه الفقرة إلى شجب **الإرهاب**، هذه التهمة المفروضة غالباً على عامة العرب والتي لا تعني عند التدقيق سوى الإرهاب **العربي** أو الإرهاب **الإسلامي**. أستطيع أن أتذكر عدداً من السياقات في الولايات المتحدة حيث يتم استخدام كلمة **إرهاب** لوصف - كما ينبغي لها أن تفعل - ساسة أمريكيين، شركات متعددة الجنسيات، أو مستوطنين إسرائيليين. غير أن هذا الواقع ليس بالضرورة ما يمنعني من شجب الإرهاب، كما أن امتناعي ليس ناجماً عن أي اقتناع من جانبي بأن العرب أبرياء من الإرهاب. فبعض العرب يقترفون - للأسف - كثيراً من الجرائم الإرهابية. من حيث المبدأ أرفض شجب الإرهاب.

لعل من المفيد معاينة الأساس الأخلاقي لهذا الرفض لأنه لا يخصني وحدي حصرياً. أعرف عرباً كثيرين يرفضون شجب الإرهاب على الملأ، وفي رفضهم هذا ثمة أشياء كثيرة يمكن أن نتعلمها عن أخلاقيات البيان وتناقضات التمثيل والعرض في الولايات المتحدة. كيف يمكن لكائن من كان أن يرفض شجب الإرهاب؟ أميل إلى أن أقول إن الرفض سهل أخلاقياً لأن كلمة

الإرهاب في الولايات المتحدة تحاملية أكثر منها وصفية. بمعنى أن ليس هناك أي تناسب في استخدامها مما حوّلها إلى مرادف للسياسة، الثقافة. والبسيكولوجيا العربية بما يحول دون تطبيقها على آلاف الحركات الأخرى حول الكرة الأرضية التي يمكن عدها إرهابية إذا تم اعتماد معايير مطّردة.

يضاف إلى ذلك أن من شأن إلزام العرب بشجب الإرهاب أن يفضي إلى ما أطلق عليه اسم الشرط اللازم للكلام. ومثل هذا الشرط للكلام بسيط: قدرة العرب في الولايات المتحدة على التعبير عن أحاسيسنا السياسية محدودة جراء الربط المستمر بين تلك الأحاسيس وبين الإرهاب؛ ففي وسائل الإعلام التعاونية ليس أمام العرب سوى خيارين؛ إما أن يشجبوا الإرهاب فوراً على نحوٍ تلقائي، أو أن يُطالَبوا بأن يفعلوا ذلك مباشرةً. وشرط الكلام الإلزامي مربك؛ لأنه يفترض (وعلى نحوٍ غير مضمر كثيراً) أن العرب وحدهم مسؤولون في سياق الأخلاق الأمريكية. ويفترض أيضاً أن العرب كذابون ذهنياً ما لم يسارعوا إلى الاعتراف بعيوبهم (أمام جمهور لا يتردد - بالمناسبة - في توظيف تلك العيوب ذريعة لغزو الدول العربية) قبل النظر في احتمال وجود نواقص وأخطاء في السياسة الخارجية الأمريكية. ويشكل شرط الكلام الإلزامي - آخر المطاف، بالنسبة إلى العرب - نوعاً من الاستسلام غير المشروط وغير النقدي لأولئك الذين يعتقدون بأننا دون الأمريكيين (ويُقرأ دون البيض) فينتظرون انعكاس تلك الدونية على أي تعامل عربي - أمريكي. (هذا الوضع ليس مختلفاً كلياً عن مبادرة بعض الزنوج، من حيث المبدأ، إلى رفض شجب اللاسامية الزنجية).

أخيراً، لأن كلمة **إرهاب** باتت مرادفة للثقافة العربية، يغدو شجب الإرهاب العربي - في سياقات كثيرة - شجباً للثقافة العربية، إذا لم يكن من جانب المتكلم فلدى - أقله - بعض الجمهور. في حالات كثيرة، حين يُقدّم أي عربي في الولايات المتحدة على شجب الإرهاب لمجرد تبرير توقعات جمهوره، فإن المتحدث لا يكون قد فعل شيئاً سوى تأكيد دونيته وتخلفه الثقافي أمام ذلك الجمهور. فالإرهاب، مثل أي فعل إنساني، له سياق؛ وتحليل سياق الإرهاب ليس مكافئاً لتسويغه. وفي مثال الإرهاب العربي، نادراً ما يتم تقديم السياق. وبالتالي فإن الثقافات والسياسات العربية تُختزل حتماً إلى ظواهر تبسيطية تبين وجود نزعات عنفية في العشائرية العربية، في بنية العائلة العربية، في العقل العربي، أو في أي نعت سهل يوظف لتعميم حقيقة أن العرب هم دون البشر.

يتكرر، مثلاً، استحضار التفجيرات الانتحارية في وسائل الإعلام التعاونية للبرهنة على أن الفلسطينيين ليسوا إلا إرهابيين بلا عقول، أما الاحتلال الوحشي الذي ترتبط به هذه التفجيرات ارتباطاً مباشراً فيتم عادةً إما تبرئته أو تجاهله. وعندئذ ينقلب الفلسطينيون إلى مصادر أعمال عنف مرعبة؛ لأنهم مصاصو دماء فطريون!! لا لطول بقائهم ضحايا لنفس النمط من الإرهاب الذي أدى إلى الإطاحة بصدام حسين. وفيما يتعرض العرب من دعاة عمل الخير، الحركيين، والأكاديميين للاختراق الدائم من قبل عناصر جهاز الإف بي آي بحثاً عن روابط إرهابية، أو للاتهام دون أي دليل من قبل إعلاميين كبار مثل بِلّ أورايلي بدعم الإرهاب، لم

أسمع كلمة واحدة في وسائل الإعلام التعاونية عن الجماعات الصهيونية الكثيرة في الولايات المتحدة التي تنشط علناً لتعمية العنف الإسرائيلي وعقلنته. ومن هذه الجماعات لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (الآيباك AIPAC)، رابطة الدفاع عن اليهود، أمريكيون من أجل إسرائيل آمنة، أصدقاء إسرائيل، التحالف المسيحي، ومسيحيون من أجل إسرائيل. كذلك منها أكثرية مجلسي النواب والشيوخ الأمريكيين. وهذه الهيئات (جماعات وأفراداً) ليست بالطبع مدانة على دعمها الإرهاب، في تصرف أخلاقي معكوس مثير للقلق؛ لأن المعلقين أنفسهم الذين يسارعون بكل استخفاف إلى اتهام العرب بالتعاطف مع الإرهاب لمعارضتهم الاستيطان الإسرائيلي، لا يعدون احتمال الاستيطان، بأي من المعايير الشريفة، مشروعاً إرهابياً.

يبقى **الإرهاب**، إذن، تعبيراً مفرط الذاتية وقد جرى توظيف ذاتيته لتسليط الأضواء على العنف العربي على نحوٍ مبالغ به، في حين كان مصير أي عنف أمريكي وإسرائيلي مماثل الإهمال (أو التهليل). رسالة حديثة في **اليو إس إيه تودي** تبين كيف أصبح العرب - دون استثناء - يَعْنون الإرهاب. ثمة قارئ غاضب من جريمة قتل نيكولاس بيرغ تنبأ قائلاً: "أشك في أن يبادر الإرهابيون إلى تقديم أي نوع من الاعتذار"[36]. لعل ما بين السطور هنا هو أن الولايات المتحدة لم يكن يتوجب عليها أن تعتذر عن فضيحة التعذيب في سجن (أبو غريب)، أو أن الولايات المتحدة، إذا فعلت، إنما هي متفوقة أخلاقياً على العراقيين الذين قتلوا بيرغ. أخفق كاتب الرسالة أو محررو جريدة **اليو إس إيه تودي** في تغيير

الصياغة بما يبقي صفة **إرهابيين** محصورة بأولئك الذين اقترفوا جريمة القتل. في الرسالة تشير كلمة **الإرهابيين** إلى جميع العراقيين، العرب، والمسلمين. حتى إذا لم تكن هذه الدلالة اللغوية مقصودة، فإنها تميط اللثام عن الكثير حول الأسلوب المعتمد في استخدام كلمة **إرهاب** لوصف ظواهر قومية وثقافية بمقدار ما تستخدم لوصف ظواهر سياسية.

متجاوزين الشجارات اللغوية، نستطيع أن نتساءل عن السبب الكامن وراء كون كاتب الرسالة على هذه الدرجة من الثقة حول كون قتلة بيرغ إرهابيين في حين أن معذِّبي السجناء العراقيين وقتلتهم - الذين يصف الكاتب أفعالهم بأنها "حوادث سجن". ليسوا إلا منحرفين لا تشي فعلتهم بما هو أكثر من هفوة طارئة في المحاكمة. الجواب: العنصرية، بكلمة واحدة. مثل أكثر الأمريكيين لا يستطيع كاتب الرسالة أن يتصور أن العنف متأصل- بطريقةٍ ما- في مؤسسات أمريكية، بما فيها حتى مؤسسة الجيش، في حين يبدو له انخراط العرب، حتى غير العسكريين، في أعمال العنف الطائشة أمراً طبيعياً. أليس تعذيب المدنيين في طول أمريكا اللاتينية وعرضها صنفاً من صنوف الإرهاب؟ أو ذلك الاجتياح غير الضروري لباناما في 1989 حيث قُتل 3000 مدني وجُرد آلاف آخرون من حيازاتهم؟ أو العقوبات التي فُرضت على العراق على امتداد التسعينيات التي تمخضت، حسب آراء عدد كبير من المراقبين، عن موت نصف مليون طفل عراقي؟ هذه الممارسات ليست إرهاباً إذا جرت عقلنتها بضراوة بوصفها ممارسات دولة لا هم لها سوى تحرير الآخرين من بربريتهم. أما ثقافة البرابرة الذين

هم بحاجة إلى التحرير فهي إرهابية بالضرورة إذا نجحت عمليات عقلنة التعذيب والتدخل. (سيتولى الفصل السادس استكشاف النقاش الذي دار حول أعمال التعذيب التي جرت في أبو غريب بقدرٍ أكبر من التفصيل).

بعد 9/11 لم يتم استحضار كلمة **إرهاب** وتوظيفها لمجرد توفير ذريعة لتنفيذ الخطة المرسومة منذ زمن طويل لغزو العراق. جرى استخدامها أيضاً لتعمية رهاب الأجانب المسعور. وكما يبين ترنس بي جفري في مقال يحمل عنواناً استثنائي الغنى بالاحتمالات: "الهجرة غير الشرعية: قرينة الإرهاب"، "كيف يستطيع [القادة السياسيون] حماية بلدنا من حزب الله إذا تقاعسوا عن تأمين حدودنا في مواجهة الهجرة غير الشرعية؟"(37). بقطع النظر عن حساسياتهم السياسية، لن يكون قراء جفري ملزمين بالسير بعيداً في تحليل كلامه ليفهموا أنه لا يريد عرباً في الولايات المتحدة سواء أجاؤوا بصورة شرعية أم لا. واستخدامه المتكرر لكلمة **إرهابي** مقصود لجعلها وثيقة الارتباط بخوف موجود سلفاً في المجتمع الأمريكي وصولاً إلى عقلنة اقتراح - ترحيل العرب من الولايات المتحدة - يمكن عده على نطاق واسع متطرفاً إذا لم يتم شغل بال عدد كبير من الأمريكيين بالخطر الداهم للإرهاب، بالخطر الذي لا يتمثل، استناداً إلى دلالات **الإرهاب**، إلا بالعرب.

يقدم لورنس أوستر مثالاً أكثر صراحةً عن رهاب الأجانب، موظِّفاً، مثل جفري، عنواناً براغماتياً يختزل شعباً كاملاً إلى جيش مقاتلين، "هزيمة الجهاد في أمريكا". كتب أوستر يقول: "**لعل المنبع**

الوحيد لتنامي نزعتي الجهاد والإرهاب في الغرب هو الهجرة الإسلامية" (التأكيد في الأصل)[38]. منطقه يطفح عنصرية لأنه يسارع إلى استحضار فترة سابقة في تاريخ أمريكا كان فيها الملونون يُعدون صراحة مختلفين اختلافاً غير قابل للتعديل، وبالتالي تجب إدارتهم بقدرٍ من الحذر المتشائم:

> *التمثيل يعني جعل الآخر مشابهاً أو مماثلاً؛ والعقيدة الأمريكية تعلمنا أن جميع الناس في العالم هم **مثلنا** [كذا] أساساً، أو يمكن **جعلهم** مثلنا بسهولة. غير أن المشكلة مع المسلمين تكمن، بالطبع، في أنهم ليسوا، عموماً مثلنا [كذا]، لا لشيء إلا لأنهم يعتنقون ديانة وجملة معتقدات متنافرة جذرياً مع - بل ومعادية بالفعل لـ - ثقافتنا ولحقيقة كوننا غربيين بالذات*[39].

وفيما بعد يقترح أوستر "**إلغاء جنسية جميع المجنسين والمولودين المؤيدين للجهاد وترحيلهم**"، وهو اقتراح ناشئ عن حرص أوستر على وقف "عملية أسلمة أمريكا" وقلبها[40].

أفترض أن من السهل تجاهل أوستر بوصفه حالماً غير واقعي، غير أن من شأن مثل هذا التجاهل أن يحجب المسألة الأكبر المتمثلة، وفق المزاج الأمريكي المعاصر، بأن مقالته ليست متطرفة إلا قليلاً. أجدني ميالاً إلى المغامرة وتخمين أن أكثرية مؤيدي بوش، مع استثناءات ضئيلة، يتفقون مع أوستر، مثلهم مثل كثيرين من الليبراليين الذين يفضلون تفصيل الخطاب البلاغي الأمريكي منذ ما قبل قيام دولة الولايات المتحدة. ليس ثمة ما هو أصيل في

خطابه؛ إنه مجرد تكرار وتأكيد لإيديولوجية خطرة تأسست مع إزاحة الهنود (الحمر) وما لبثت أن زادت رسوخاً عبر سلسلة متنوعة الحلقات من المعارضة: لخطر العبودية، لمواطنية الزنوج الكاملة، لإلغاء حصص الهجرة، لحق انتخاب النساء، لمنع الفصل، لإعادة توطين الهنود (الحمر)، لتنظيم العمال الزراعيين المكسيكيين، ولأمور أخرى مشابهة. يستطيع المرء أن يقول، بالفعل، إن أوستر يستمد مادته من أكثر التقاليد الأمريكية رسوخاً، من تلك التقاليد التي لخصها زميله ديفيد هوروفيتز بنجاح حين كتب يقول: "علينا، بالطبع، أن نعيش وفقاً لمعايير أسمى من تلك المعتمدة من قبل البرابرة الذين نحاربهم"(41).

ظلت اللغة الأمريكية دائمة الطواعية مواكبة لمتطلبات هذا التراث. الآن صارت كلمة **الإرهاب** الكلمة الأفعل، والأوسع استخداماً، لتحقيق عملية حرمان العرب في الولايات المتحدة وخارجها من حقوقهم. وكما يلاحظ روبرت فيسك فإن "[أهل الغرب] باتوا الآن يصورون العرب في أفلامنا مثلما كان النازيون يصورون اليهود ذات يوم. غير أن العرب فرائس مشروعة. وبوصفهم إرهابيين محتملين لابد من ترويضهم "إعدادهم"، إذلالهم، ضربهم، تعذيبهم"(42). إذن، أنا لست على الإطلاق مستعداً للإذعان للمطالبات بشجب الإرهاب، مكتفياً بالامتثال للمطالبات بشجب تعميم تأثير كلمة **الإرهاب** بوصفها كلمة عنصرية. ذلك لأنني إذا أدنت الإرهاب وفق شروط المطالبين بالإدانة، سأكون قد بررت العنصرية التي يكثرون من التعبير عنها؛ وسأكون، عبر مجرد الكلام، قد صنَّفت العم سليم وجميع أهلي وأقاربي في خانة

obeikandl.com

البرابرة الجديرين بالتمدين عبر الغزو، الاحتلال، التعذيب، والقتل. أرجو أن يبادر جميع العرب في الولايات المتحدة إلى عصيان مثل هذه النصيحة والتمسك - بدلاً من ذلك - بتشريف روعة ثقافاتهم.

العنصرية الليبرالية

قام الجزء الأكبر من هذا الفصل على الاقتباس من كُتّاب محافظين جدد لتوفير المواد الدالة على العنصرية، غير أننا سنكون مهملين إذا لم نسارع إلى تسليط الضوء على أمثلة من عنصرية معاداة العرب الليبرالية المتفشية أيضاً في الولايات المتحدة. بعض أكثر الدوريات والمنظمات شراسة في معاداتها للعرب في البلاد مثل رابطة مناهضة التشهير (ADL)، مركز سايمون ويزنتال، **ديسنت**، **النيويورك تايمز**، **النيو ريببليك**، والحزب الديمقراطي، تضع نفسها في خانة الليبرالية على درجاتٍ مختلفة. وكما سنرى فإن لغة عنصرية معاداة العرب الليبرالية مختلفة اختلافاً ملحوظاً عن المفردات الرؤيوية التي يستخدمها الأصوليون المسيحيون والمحافظون الجدد، غير أن هذا الاختلاف لا يعني أن عنصرية معاداة العرب الليبرالية ألطف وأقل شمولاً. فعنصرية معاداة العرب الليبرالية موجودة في الإطار التاريخي نفسه ومتجذرة - هي الأخرى - في تربة الرواية الإجمالية الأمريكية التقليدية القائمة على النزعة التوسعية ومبدأ تفوق العرق الأبيض تجنباً للفرضيات العنصرية لدى تحليل العالم العربي. تبقى هذه الحقيقة ثابتة حتى حين يحاول بعض الليبراليين ادعاء معارضة تلك الفرضيات - بل وحين يتظاهرون أحياناً بأنهم عاكفون على تفكيكها.

قد لا يضاهي أي ليبرالي (أو نصف ليبرالي، تبعاً لمزاجه)، على صعيد تملق العرب وتأييدهم، معلق **النيويورك تايمز** المعروف توماس فريدمان. في الأساس، ليست سياسات فريدمان جديرة بأي اعتبار. أحياناً يبادر، مرغماً، إلى دعوة إسرائيل إلى الانسحاب من المناطق المحتلة، ولكن في إطار تنازلات فلسطينية مستحيلة (مثل نصيحة "وقف الإرهاب" دائمة الحضور). يكثر فريدمان من إلقاء المحاضرات على العرب عن حاجتهم إلى التنوير والتحديث (أو يطلب من قادة أمريكا أن يفرضوا على العرب التنوير والتحديث بالقوة). وهكذا فإن من الممكن وصف سياسة فريدمان بشأن النزاع الإسرائيلي - العربي بالوسطية لأنه نادراً ما يتورط في الخطاب المحابي لإسرائيل الذي يميز سلباً أقرانه جورج ول، وليم سافاير، وتشارلز كراوتهامر.

لماذا، إذن، إقحام فريدمان في دراسة موضوعها عنصرية معاداة العرب؟ يمكن العثور على الجواب في أخلاقيات خطابه، الدائب بالضرورة، على إخضاع العرب لأمزجة أولياء نعمتهم الأمريكيين الأوسع صدراً. أحياناً، يتخذ فريدمان مواقف يمينية، كما فعل حين كتب يقول إن "المدعي العام جون آشكروفت ليس مجنوناً مئة بالمئة في اندفاعاته نحو تبني تدابير بالغة الشدة، غير مسبوقة ومحاكم عسكرية للتعامل مع الإرهابيين المشبوهين"(43). وعلى الرغم من أن فريدمان يسجل أنه "سعيد بوقوف النقاد في وجه السيد آشكروفت" فإنه يجد نفسه "متعاطفاً بعض الشيء مع تحركات السيد آشكروفت"(44). إذا كانت الحالة هي هذه، فإن فريدمان يجد نفسه عندئذٍ - شاء أم أبى - متعاطفاً بعض الشيء

مع ضرورات غير دستورية قائمة على الحط من شأن العرب لإطلاق نوع من المناشدة الأخلاقية. وهذه الضرورات تستند عموماً إلى اختزال جميع العرب إلى معتدين، الأمر الذي لا يختلف بالمعنى الوجودي عن الحتموية البيولوجية، تلك الذهنية التي يعززها فريدمان حين يقول: "دعونا، إذن، نتذكر الوقت الطويل الذي عاشوه بين ظهرانينا والقدر القليل الذي أخذوه منا - كيف ذهبوا إلى حتفهم معتقدين بأن القوانين الأمريكية ليست موجودة إلا لمراوغتها والالتفاف عليها، بأن المواطنين الأمريكيين ليسوا موجودين إلا أهدافاً للقتل، وبأن المجتمع الأمريكي ليس موجوداً إلا للتدمير"(45). محبطٌ حقاً أن نجد فريدمان عاكفاً على إثارة الخوف من أجل حشد التأييد لاختزال الحريات المدنية (حريات فريدمان المدنية آمنة، بالطبع، وهو يعلم ذلك). بقطع النظر عن أسلوبه المهزوز، فإن السمة الأكثر إقناعاً لخطابه تعلن أن نزعة الاستثنائية الأمريكية يجب الحفاظ عليها بأي ثمن، ولو حتى مقابل استئصال المؤسسات القانونية التي تجعل الولايات المتحدة استثنائية. في المسرحية الأخلاقية هذه يؤدي العرب دور "الشر الجذري" إذا استخدمنا عبارة فريدمان.

يقدم فريدمان أيضاً آراء مشابهة في سياق ما يمكن عده أكبر نقاط ضعفه الفكرية: إضفاء الصفة الرومانسية على السياسة الخارجية الأمريكية وعلى دور الولايات المتحدة في العالم. فهو يرى أن "على العالم أن يصبح مكاناً أكثر تنظيماً وخضوعاً للتحكم، إذا كانت أمريكا ستبقى أمريكا، مجتمعاً حراً ومنفتحاً، وثيق الارتباط بهذا العالم"(46). قد لا أستطيع أن أنعت هذا الاقتراح بالعنصري، غير أنني سأجادل دون تردد أنه يروّج دونما وعي لقيم التفوق

الأبيض. وهو يفعل ذلك إذ يفترض أن الولايات المتحدة منظمة في حين أن العالم بأكثريته غارق في الفوضى، نقطة شديدة الإثارة للشك نظراً لأن فريدمان كان قبل خمسة أيام قد دعا إلى تطبيق "إجراءات بالغة الصرامة وعقد المحاكمات العسكرية". يضاف إلى ذلك أن فريدمان يبدو، عبر نوع من الجهل إما المتعمد أو الفعلي، مؤمناً بأن الولايات المتحدة راغبة في خلق نظام في العالم، فيما الدلائل كلها تشير إلى أنها عازمة، بدلاً من ذلك على الاحتفاظ بنوع من الفوضى التي توفر الأجواء المناسبة لتمكين الشركات من تحقيق أرباح أكبر. وتشمل تلك الفوضى تدخلاً غير مبرر فيما وراء البحار، احتكار مصالح الأعمال للسياسة الداخلية، الحفاظ على أنظمة دكتاتورية صديقة أو تنصيبها، تدمير البيئة، وعسكرة الأرض والفضاء كليهما.

من الواضح أن أياً من هذه القضايا لا تهم فريدمان، وفي إضفائه الصفة الرومانسية على نفوذ أمريكا الكوكبي يرجّح كفة حق الأغنياء في فرض النظام على باقي العالم، متبنياً منطَلقاً رأسمالياً لم يسبق له في التاريخ المعروف والمكتوب أن خدم مصالح الفقراء أو المحرومين. وفكرة فريدمان القائلة إن الولايات المتحدة جيدة التنظيم ليست أقل إشكالية. صحيح أنها جيدة التنظيم بالنسبة إلى من هم في مواقع السلطة والمرجعية، غير أنها ليست كذلك بالنسبة إلى العمال المهاجرين الذين يتعرضون للاستغلال في ورشات التعرق الافتراضية، إلى الهنود (الحمر) الذين يجري تحويل محمياتهم إلى مطامر لأكثرية النفايات السامة الأمريكية، وإلى مئات العرب والمسلمين الذين يذوون - بموجب ما يراه فريدمان

عدالة - في زنزانات منفردة دون إجراءات حقوقية أصولية أو تمثيل قانوني. باختصار، يقوم فريدمان باختراع أخلاق إنسانية خاصة بالولايات المتحدة مع الإصرار في الوقت نفسه على حفز أمريكا على تصدير تلك الأخلاق إلى عالم لا إنساني. وهو لا يرى أبداً أن تصدير القيم الأمريكية هو أحد أهم وأكبر أسباب كون العالم على هذا المستوى من اللاإنسانية في المقام الأول.

من الممكن غض النظر عن فريدمان بوصفه مفرطاً في التفاؤل، غير أن ليبرالياً آخر من العيار الثقيل، هو آلان ديرشوفيتز، يقدم أمثلة أكثر وضوحاً عن العنصرية المضمرة. فهو لا يرى أي تناقض بين حمل لقب "داعية تحرر مدني" و"مؤيد عمليات تعذيب" في الجملة ذاتها، لأنه يضع خطابه في إطار غيرية إنسانية تتظاهر بالاهتمام - آخر المطاف - بسلامة الإسرائيليين والأمريكيين. وقد جادلتُ في المقدمة وفي فقرات سابقة من هذا الفصل أن نقاشات كثيرة في الولايات المتحدة، متركزة بطريقةٍ ما على أن جدليات (ديالكتيك) التدخل في العالم العربي تحيل - قصداً أو دونما وعي في الغالب - الأداة الكولونيالية إلى الذات التي من خلالها يمكن تحديد الموضوع المستعمَر (بفتح الميم). ومثل هذا التقليد السجالي يتمخض عموماً عن الاهتمام بأمن ومصالح المستعمِر (بكسر الميم) عبر اختزال الكتلة السكانية المستعمَرة (بفتح الميم) إلى تهديد أو خطر داهمين. إن العنصرية محفورة، أقله ضمناً، في هذا النوع من النزعة الاختزالية؛ لأن أسلافها تشطب وكالة وبالتالي إنسانية أولئك الذين تتم محاكمة سلوكهم خارج إطار الاجتياح الأجنبي والطموحات التحريرية، بما يفضي عادةً إلى أخلاق ذهنية مقيدة

وسوء تمثيل للكتلة السكانية المستعمَرة (بفتح الميم). فتأييد ديرشوفيتز لقيام إسرائيل بتعذيب الإرهابيين الفلسطينيين المزعومين سرعان ما يجعل أخلاقه موضع شك، وانطلاقاً من السياق الذي ينشأ فيه هذا التأييد، يعرضه لتُهم وضع العرب، والفلسطينيين خصوصاً، في سلة واحدةٍ وتجريدهم من إنسانيتهم[47]. والأهم من ذلك هو أن تسويغ ديرشوفيتز لاحتلال إسرائيل، وقد تجلى في كتب ذات شعبية مثل **دفاعاً عن إسرائيل**[48]، يؤدي أيضاً إلى وضع خطابه في سياق التقليد آنف الذكر؛ لأن دعم وجود إسرائيل في المناطق المحتلة وإنكار تجاوزات جيشها المفرطة ليسا من حيث الجوهر إلا دفاعاً عن أمر واقع جيو - سياسي يجري فيه تجريد الفلسطينيين من الكرامة والقيمة. وأنا هنا لا أذكره لمجرد تسليط الأضواء على جملة الافتراضات التي من شأنها أن تقود القراء إلى استنتاج أن ديرشوفيتز يجعل الفلسطينيين، جماعياً أعداء[49]. لعلي، بالأحرى، مهتم بدعوى خاصة يحلو لديرشوفيتز إطلاقها، ألا وهي أن الفلسطينيين عنصريون. ففي مادة بعنوان "حملة الإبادة الفلسطينية"، مثلاً، كتب ديرشوفيتز يقول:

> *مما ينبغي ألا يفاجئ أحداً أن الإرهابيين الفلسطينيين يستخدمون معايير عنصرية في انتقاء أهدافهم المدنية؛ لأن الغاية الإجمالية للإرهاب الفلسطيني عنصرية في جوهرها. فهو يسعى إلى حرمان الشعب اليهودي من حق تقرير المصير. وفي ظل مثل هذه الصيغة من الشريعة الإسلامية، من غير المسموح لليهود أن يحكموا أي أرض سبق لها أن كانت خاضعة*

للحكم الإسلامي، وغير مسموح بالمثل لأي أكثرية يهودية أن تحكم أقلية مسلمة، عرب إسرائيل تحديداً(50).

يدخلنا ديرشوفيتز في مأزق. إذا كان احتلال إسرائيل عنصرياً ومقاومته هي الأخرى عنصرية فإن علينا أن نتصدى لزعمين متنافسين لا يلبثان، نتيجة تفاعلهما الخطابي، أن يفقدا، كلاهما، صدقيتيهما الأخلاقيتين.

لذا، فإن علينا أن نبدأ بتقويم معايير ديرشوفيتز **للعنصرية**: إنكار حق الآخرين في تقرير المصير؛ رفض العيش كأقلية؛ انتقاء أهداف الهجوم من منطلق انتماءاتهم العرقية حصراً؛ واستحضار الشرائع الدينية تسويغاً لأعمال العنف. مع بعض التعديلات، أميل إلى الموافقة على هذا المعيار، وذلك هو ما يجعلني مقتنعاً بأن الاحتلال الإسرائيلي عنصري، لأن كل معيار ينطبق على وجود إسرائيل في المناطق المحتلة. بعبارة أخرى، يبقى ديرشوفيتز على صواب، عموماً، على الصعيد الفلسفي، حين يدين استهداف المدنيين ونكران حق تقرير المصير بالنسبة إلى الناس من منطلق انتمائهم العرقي، بوصفهما تصرفين عنصريين؛ غير أن المشكلة تكمن في أن لديه فهماً مقلوباً للنزاع الإسرائيلي - العربي.

أحياناً، يلوذ الناس باستخدام منهجية ملتبسة لتحويل ضحايا عنصريتهم إلى عنصريين سعياً إلى تعمية نظرة عالمية قائمة على العنف والظلم. وديرشوفيتز يجسد هذه الاستراتيجية. ومع أن هناك، بالتأكيد، عناصر لا سامية (لا عنصرية) في المجتمع الفلسطيني، فإن من غير الممكن منطقياً عد مقاومة الفلسطينيين

لاحتلال إسرائيل، بما فيها التفجيرات الانتحارية، معاداة للسامية. يبدو أن ديرشوفيتز ينسى أن الإسرائيليين، لا الفلسطينيين متمتعون بحق تقرير المصير؛ أن الإسرائيليين، لا الفلسطينيين، ينشئون مؤسسات قائمة على إقصاء الآخرين تبعاً لانتمائهم العرقي؛ أن الإسرائيليين، لا الفلسطينيين، دائبون بحماسة على حرمان الآخرين من حق تقرير المصير؛ أن الإسرائيليين، لا الفلسطينيين، يستخدمون الدين أساساً للمحاكمة القانونية والحقوقية؛ أن الإسرائيليين، لا الفلسطينيين، مستمرون في طرد السكان الأصليين وفقاً لإملاءات النزعة القومية العرقية.

وعلى الرغم من أن عناصر في المقاومة الفلسطينية تطرح علينا أسئلة أخلاقية بالغة العمق، فإن علي أن أجادل، كما فعلتْ كوكبة من المناضلين ضد الاستعمار من ايميه سيزار إلى فرانز فانون إلى إدوارد سعيد، أن عملية التحرر من الاستعمار ليست - بالرغم من أنها ملتبسة أخلاقياً أحياناً - عنصرية على الإطلاق. في حين أن عملية الاستعمار هي - بالمقابل وعلى الدوام - كذلك. قد يوافق ديرشوفيتز، غير أنه يبدو - جراء ضرورته الأخلاقية أو برنامجه السياسي أو ما شئت أن تسميه - مقتنعاً بأن الإسرائيليين، لا الفلسطينيين، منخرطون في عملية تحرر من الاستعمار؛ لذا فإن مأزق الموازنة الأخلاقية الذي واجهنا به من قبل لا يلبث أن يصبح إشكالياً، لأن الحوارات حول الموازنة الأخلاقية تتلاشى في حضور التزوير الكاسح.

علينا هنا أن نعاين معلقاً آخر ذائع الصيت يقحم الفلسطينيين في فضاء تتعرض فيه وكالتهم للمساومة؛ إنه زعيم طائفة التيكون

الحاخام مايكل ليرنر، الذي فاز ببعض الشهرة السلبية بين يهود أمريكا لمعارضته الاحتلال الإسرائيلي. إنه تقدمي أكثر منه ليبرالي وقد حقق شهرته بوصفه ناشطاً في حركة السلام عبر انتقاد قادة إسرائيل على رفض التوصل إلى تسوية واقعية مع الفلسطينيين. ورسائله الإلكترونية إلى طائفة التيكون (ممن لم يطلب أكثرهم - وأنا منهم - إدراجهم في القائمة) تشي بقدرٍ لافت من التناقض والغموض؛ لأن ليرنر يوجه انتقادات لاذعة إلى الفلسطينيين الذين يهاجمون الإسرائيليين، مدنيين ومستوطنين على حدٍّ سواء. في الوقت نفسه، تقوم الرسائل عادة بشجب الاحتلال وما يتمخض عنه من بؤس. يستطيع المرء متابعة حركات ليرنر وهو يخوض غمار هذا التناقض باذلاً أقصى ما يستطيع من جهد لانتزاع العنف اليهودي والفلسطيني كليهما من سياقهما نافياً أنهما ظاهرتان اجتماعيتان - سياسيتان محافظاً على نوع من التوازن الأخلاقي - المعنوي - أي نوع من الازدراء المتكافئ لأي عنف بقطع النظر عن هوية المقترف(51).

إن سخط ليرنر اللاعنفي ورغبته في اتفاقية سلام عادل لا يمكنهما أن يتعايشا. وأنا أعرض هذه النقطة بقدرٍ كبير من الحزن، غير أن المرء لا يستطيع، كما يعلم كل من أمضى بعض الوقت في المناطق المحتلة، أن يتوقع نوعاً صارماً من اللاعنف بسبب جملة الظروف السياسية والاقتصادية التي يعيش فيها الفلسطينيون. فحين يصر أناس مثل ليرنر على إدانة العنف الفلسطيني بقدرٍ أكبر من الحماسة، مقارنة بما يدخرونه من نقد لتطهير إسرائيل العرقي، يجري اختزال الفلسطينيين، مرةً جديدة، إلى عدوانيين بلا

عقول. يضاف إلى ذلك أن إحساس ليرنر بالتاريخ معدوم كلياً بما يضاعف من عجزه عن قبول تحرير الفلسطينيين من المنطلقات التي أوجدوها لمثل هذا التحرير، بوصفهم أصحاب الحق الوحيدين لأن يفعلوا ذلك. علاوةً، حين يبادر ليرنر إلى انتقاد جماعات داعية إلى السلام على "غبائها أحادي البعد" وعلى "مشاعرها المعادية للسامية والمناهضة لإسرائيل"، فقد يبدو لكثيرين أنه، مثلما طال إدمان ليبراليي أمريكا لأن يفعلوا فيما يخص انتقاد أمريكا، ليس شديد الحرص على حركة تحرر من الاستعمار عضوية، بل هو مهتم فقط بوقاية إسرائيل من ذلك النوع من النقد الذي يقع خارج إطار انشغاله المحدود بضرورات التحرير الفلسطيني[52]. لعل هذا النوع من الجبن هو أحد الأسباب التي تجعلني راسخ الاقتناع بأن العرب الأمريكيين المهتمين بالسياسة مرغمون على الدخول في أي نقاشات مثارة حول العالم العربي.

في مقدمته لكتاب: **علاج إسرائيل/فلسطين**، يقول ليرنر: "عبر التاريخ الطويل للمعارك الدعائية والإعلامية المحتدمة بين الصهاينة والفلسطينيين، دأب كل من الطرفين أحياناً على رواية القصة محاولاً جعلها تبدو كما لو أن الطرف الآخر ظل على الدوام وعلى نحوٍ مطرد يقترف أعمالاً مشينة لأسباب باطلة. والحقيقة هي أن الطرفين، كليهما، اقترفا ومازالا يقترفان أخطاء مرعبة. ومع ذلك يبقى صحيحاً أيضاً أن كلاً منهما يستطيع أن يقدم دفاعاً معقولاً عن خياراته"[53]. هاكم تاريخه الوجيز لاستعمار فلسطين الصهيوني:

كان الفلسطينيون وعرب الشرق الأدنى في زحمة النضال للتحرر من القوى الاستعمارية، وكانوا خائفين من الحلم الصهيوني بخلق دولة يهودية على أرض مجتمعهم الفلسطيني الناشئ. نظروا إلى اليهود الذين جاؤوا إلى فلسطين لا كلاجئين بائسين بل بوصفهم أوربيين مؤسسين لمعطيات ثقافية أوربية، لترتيبات اقتصادية وسياسية، موسعين بذلك آليات السيطرة الأوروبية. وهكذا فإن العرب عموماً، وأولئك المقيمين منهم في فلسطين خصوصاً، لم يكونوا مستعدين لمنح اليهود مكاناً آمناً يستقرون فيه.

لاذ الفلسطينيون بأعمال العنف وبنفوذ الدول العربية لدى البريطانيين لحرمان اليهود من الملجأ. تضافرت حساسياتهم ضد الشعب اليهودي وحاجاتنا نحن على إطلاق آلية حولت اليهود فعلاً إلى ما كان الفلسطينيون يخشونه: جماعة لن تلبث أن تدفع الفلسطينيين إلى أن يصبحوا لاجئين. بعد سنوات، رد اليهود بالمثل حين أنكرنا على الفلسطينيين حق العودة إلى بيوتهم حين أصبحنا أصحاب النفوذ والسلطة(54).

يفضح تحليل ليرنر عنصرية معاداة عرب مضمرة لأنه يخفق في إضفاء أي صدق على الروايات التاريخية الفلسطينية التي هي أقسى من هذه الصورة بكثير، فيقع في مطب تقنية المركزية العرقية. يبقى منطق درسه في التاريخ مربكاً: اليهود الأجانب

الذين استعمروا فلسطين لم يكونوا مستعمِرين (بكسر الميم)؛ كان يتعين على الفلسطينيين أن يمنحوا اليهود أرضهم ليصبحوا أقلية درجة ثالثة تكفيراً عن جريمة إبادة لم يقترفوها؛ اليهود الأوربيون الذين استوطنوا فلسطين لم تكن لديهم حساسيات أوربية؛ الحساسيات الفلسطينية دفعت اليهود إلى تجريد الفلسطينيين من حيازاتهم؛ لم يقم اليهود بطرد الفلسطينيين بل هم رفضوا لاحقاً السماح لهم بالعودة إلى بيوتهم.

غير أن ليرنر ناشط تقدمي ويتعين علينا أن نمنحه فرصة الإفادة من الشك ونفترض أنه لم يجد الفرصة المناسبة لقراءة فلاديمير جابوتنسكي، ذلك المفكر النقدي الشهير الذي اضطلع بدور هائل في التأسيس لحظة الاستيطان: "على الاستعمار الصهيوني، حتى الأكثر تقييداً، إما أن يتوقف أو ينفذ في تحد للسكان الأصليين"[55]. يبدو أيضاً أنه لم يهتد إلى السطر الذي يصف جابوتنسكي فيه العرب والمسلمين بـ "حشد صاخب في أسمال متوحشة بالية" ويشير إلى أنهم "وحوش صحارى، لا أناس شرعيون"[56]. وقد يُعذر ليرنر لعدم اطلاعه بعد على بيان ديفيد بن غوريون الذي قال: "يجب علينا أن نطرد العرب ونستولي على أمكنتهم" و"أنا أفضل الترحيل القسري - لا أرى أي شيء لا أخلاقي في ذلك"[57]. أو على خطة تيودور هيرتزل: "سنحاول دفع الكتلة السكانية العربية المدقعة عبر الحدود"[58].

ولأن ليرنر معجب حقاً بالفلسطينيين فقد ننتظره إلى أن يمعن النظر في كتاب **السور الحديدي** المهم لآفي شلايم حيث يقال:

إن ميول جابوتنسكي الغربية القوية كانت نابعة من نظرته العالمية المتميزة. رفض نظرة الشرق الرومانسية الحالمة وآمن بالتفوق الثقافي للحضارة الغربية. "نحن اليهود ليس لدينا أي شيء مشترك مع ما يطلق عليه اسم "الشرق" ونحمد الله على ذلك" أعلن جانبوتنسكي للملأ. فالشرق، بنظره، كان يمثل سلبية بسيكولوجية، استنقاعاً اجتماعياً وثقافياً، واستبداداً سياسياً ... كان جابوتنسكي يرى الصهيونية لا بوصفها عودة لليهود إلى وطنهم الروحي بل بوصفها امتداداً ونتاجاً للحضارة الغربية في الشرق[59].

في الكتاب نفسه، سيجد ليرنر أن حاخامين ذهبا إلى فلسطين في مهمة تقصي حقائق بتكليف من هيرتزل قالا في إحدى برقياتهما: "العروس جميلة، ولكنها متزوجة رجلاً آخر"[60]. وسيجد أيضاً أن شلايم يقول عن هيرتزل: "كان يرى السكان الأصليين بدائيين ومتخلفين، وكان موقفه منهم أميل إلى التعاطف. كان يعتقد بوجوب تمتعهم كأفراد بحقوق مدنية في دولة يهودية ولكنه لم ينظر إليهم بوصفهم مجتمعاً متوفراً على حقوق سياسية جماعية في الأرض التي كانوا يشكلون أكثرية أهلها الساحقة"[61]. من الواضح أن جابوتنسكي تأثر بهيرتزل: "بوصفهم حملة جميع حسنات الحضارة الغربية وخيراتها كان من المحتمل، برأيه، أن يبادر سكان الشرق المتخلف إلى الترحيب بهم"[62]. وسيكتشف ليرنر من قراءة شلايم أيضاً أن رئيس المنظمة الصهيونية العالمية حاييم وايزمن لم يكن - هو الآخر - مسكوناً بأي أوهام حول الاستيطان اليهودي:

obeikandi.com

"لم يكن لديه أدنى شك حول تفوق مطالبة اليهود على مطالبة العرب بوطن قومي في فلسطين، على الصعيد الأخلاقي"(63).

انطباع ليرنر الكتابية للصهيونية لا تنطوي - إذن - على أي قيمة. من المؤكد أنه يريد أن يعتقد بأن اليهود لم يقترفوا أي ذنب في طرد العرب، بل كانوا مجرد ضحايا للظروف واضطروا اضطراراً إلى ممارسة عملية التطهير العرقي بحق الفلسطينيين من منطلق استحالة التعامل مع العرب. وبالتالي فإن وصفاته المتعلقة بالتوصل إلى تسوية سلمية شديدة الانحياز مما يجعلني أحياناً أنظر إلى قيامه بإضفاء الصفة الرومانسية على تاريخ إسرائيل أكثر إرباكاً وتشويشاً حتى من ثرثرات واجترارات قطيع من المتشددين من أمثال آلان ديرشوفيتز أو دانييل بايبس. لا يبالي ليرنر إلا بإنقاذ إسرائيل من تهمة لا إنسانيتها. والفلسطينيون لا يتم إقحامهم في هذا المسعى الرامي إلى التبرئة إلا عَرَضاً. مع أن آخرين قد يعذرونه على إخفاقه في قراءة أجزاء من الرواية الصهيونية التي لا تتناغم مع أوهامه حول الاستيطان اللطيف، فإنني لست مستعداً لذلك. لولا جريمة أدبيات الليبراليين الاعتذارية التبريرية لما دام الاستعمار والاستيطان - آخر المطاف - شهراً واحداً في أي من الأمكنة التي ابتُليت بهما.

العنصرية الليبرالية المُمَأْسَسَة

طالما جرى إضفاء الصفة المؤسساتية على العنصرية بصيغتها المتمثلة بدعم التطهير العرقي الذي تمارسه إسرائيل في الإدارة الأمريكية ولم يتخلف الديمقراطيون عن ممارسة تأثير كبير في

تلك العملية فمرشح 2004 الديمقراطي لرئاسة الجمهورية، جون كيري، مثلاً، كتب مادة قصيرة في 2001 تحت عنوان "قضية إسرائيل هي قضية أمريكا" أعلن فيها: "في هذا الزمن الصعب علينا أن نؤكد من جديد أننا ملتزمون على الدوام بقضية أصحاب الضمير في كل مكان - مع التأكيد مرةً أخرى لحقيقة أن قضية إسرائيل يجب أن تكون قضية أمريكا"(64). نسي كيري أن الولايات المتحدة مازالت ملتزمة بالتدخل الاستباقي، بالاحتلال العسكري، وبالسياسة الخارجية العنصرية القائمة على مبدأ أن قضية إسرائيل وأمريكا هي ذاتها. وقد كان من شأن قضية إسرائيل أن تبقى مستحيلة لولا مبلغ الـ 5.5 مليار تقريباً من الدولارات المساعدة التي تتلقاها إسرائيل سنوياً من الولايات المتحدة، هذه المساعدات التي حوّلت مزيداً من الساسة إلى منافقين أكثر من أي شيء آخر، بما في ذلك الزنا.

لم تسهم ليبرالية كيري قط في منعه من تسديد فواتير النزعة التوسعية الإسرائيلية. وسجله التشريعي فيما يخص الشرق الأدنى مشين، لأنه ظل دائم الدعم أو الرعاية المشتركة لجملة المواقف الداعمة لإسرائيل في مجلس الشيوخ خلال أكثر من 95 بالمئة من الوقت. لم تمنع أعضاء كونغرس ليبراليين آخرين من شرعنة الاستيطان الإسرائيلي. فقرار المجلس رقم 294 (2003)، وهو نص تشريعي أسس لأبشع أنواع عنصرية معاداة العرب، أُقر بأكثرية 399 صوتاً مقابل 5، مع 7 مصوتين حضوراً و23 متمنعين عن التصويت. وكما علق هاوارد بيرمن (ديمقراطي من كاليفورنيا) فإن "السبب الكامن وراء تجرؤ إسرائيل على السير قدماً، بصرف النظر عن

الهجمات الإرهابية المتواصلة، هو يقينها بأن حكومة الولايات المتحدة، ولاسيما الكونغرس، تقف في صفها في هذا النزاع"[65].

وحسبما جاء في **الواشنطن ريبورت أون ميدل إيست أفيرز** عن الأعضاء العشرة الأوائل الحاصلين على شهادة دعم إسرائيل في مجلس النواب والشيوخ فإن 9 و8 فيهما على التوالي ديمقراطيون. أما عن دورة مساهمات عام 2004 فإن 6 من الـ 10 الأوائل في كل من المجلسين ديمقراطيون.

هذا الدعم لإسرائيل، في تعارض ليس مع القانون الدولي فحسب بل وفي تناقض مع ضمير العالم من الصين إلى أمريكا اللاتينية، يشهد على مدى طغيان عنصرية معاداة العرب في الولايات المتحدة. كثيرون من ذوي الضمائر يدعمون قضايا نبيلة ولكنهم لا يمارسون أي ضغط، كما يحق لهم، على ممثليهم لدفعهم إلى إجبار إسرائيل على قبول تسوية سلمية قائمة على الاتفاقيات الدولية التي هي أحد أطرافها. كذلك لم يبدُ إطراء كيري المتكررة في 2004 لإسرائيل مزعجاً لأكثرية التقدميين الذين كانوا مستعدين لتبني ترشيحه بالرغم من أن برنامجه كان مشتملاً على تقديم المساعدة إلى الاستعمار الاستيطاني. وأولئك الذين زعموا أن فلسطين لم تكن إلا قضية ثانوية وغير ذات أهمية في مواجهة مشكلات داخلية أكثر إلحاحاً لم يكونوا فقط يعقلنون صيغة وحشية من صيغ العنف، بل كانوا يرسخون ويعززون وعياً يضطلع بدور فاعل في خلق العديد من المشكلات التي كانوا يأملون في اجتثاثها. لولا تاريخ الولايات المتحدة الخاص في مجالات الاستيطان والتطهير العرقي لما كانت كثرة من المشكلات الداخلية

المعقدة التي تقض مضاجع الليبراليين والتقدميين على هذا المستوى من الطغيان (أو تعرضت للإغفال بوصفها هنات ثانوية في المصير القومي) حسب أقوى الاحتمالات. لا أستطيع أن أحدد الطريقة التي تستطيع الولايات المتحدة اعتمادها لاستئصال هذه المشكلات الداخلية، غير أنني متيقن من أن الاستعمار الاستيطاني ليس هو الحل.

على أي حال، يبقى الدعم الليبرالي لإسرائيل ذا تأثير فعلي في السياسة الداخلية في الولايات المتحدة. ففي 17 أيلول/سبتمبر 2003 أقرت لجنة المجلس النيابي الفرعية للتعليم النخبوي بالإجماع قراراً برقم إتش آر " 3077 قضى بإيجاد محكمة اتحادية لمراقبة انتقاد إسرائيل في المدن الجامعية الأمريكية. بات الأساتذة المخالفون عرضة للاستجواب والمساءلة. في 21 تشرين الأول/أكتوبر 2003، تم إقرار القانون في المجلس كله. قضى القانون بتشكيل مجلس استشاري مؤلف من سبعة أعضاء يتمتع بصلاحية التوصية بتقليص أو قطع الدعم المالي الاتحادي للجامعات التي تؤوي أكاديميين متهمين بتعريض مصالح إسرائيل للخطر. يقول أستاذ التاريخ بجامعة ميتشيغان جوان كول شارحاً:

> *ليس المقصود... إلا تسليط الضوء على مدى تناقضهم بشأن الحرب العراقية، أو كره استيطان إسرائيل للضفة الغربية، أو إماطة اللثام عن حقيقة أن حكومة الولايات المتحدة كانت أحياناً فيما مضى على علاقة ود وثيقة مع أعداء حاليين مثل القاعدة أو*

obeikandi.com

صدام. ليس أي من هذه المواقف "معادياً لأمريكا". وأي محاولة تبذلها هيئة يعينها الكونغرس لتمنع أساتذة الجامعات من الإتيان على ذكر هذه الأمور - أو المبادرة إلى استئجار من يرد عليها إذا ما أقدموا على التطرق إليها - إن هي إلا انتهاك صارخ للتعديل الأول لدستور الولايات المتحدة(66).

بالرغم من كل كلامهم الخطابي والإنشائي عن العدالة والحريات المدنية، نجد أن الساسة الأمريكيين الديمقراطيين الليبراليين ليسوا أقل تورطاً في عنصرية معاداة العرب من نظرائهم الجمهوريين. وجزء كبير من الكتلة السكانية الليبرالية الأمريكية يؤيد، إذ يخفق في محاسبة ممثليه، تشريعات مفعمة بعنصرية معادية للعرب، بعلم أو دونه فعلاً. وحسبما أرى فإن هذا الوضع لا يكتفي بتقديم صورة مسرحية مثيرة للسبب الكامن وراء كون الرغبة في استئصال نظام العنصرية الأمريكي عبر العمل في إطار هذا النظام نفسه محكوماً بالإخفاق، بل يتجاوز ذلك، دونما وعي، إلى تعزيز وترسيخ العنصرية التي يدعي جل الليبراليين أنهم يريدون وضع حد لها.

قاب قوسين أو أدنى....

شاعرة ساليس وكري المتألقة لي ماراكل تختتم قصيدتها التي تحمل عنوان: "ملحمة حقيقة **أمريكي**" بنوع من النبوءة إذ تقول:

مثل نكتة عتيقة عليلة يحاول **أمريكي** أن ينتصب

يندفع مسعوراً لاستثارة غضب الأنوثة.

هلاكه قاب قوسين أو أدنى...(67).

يتضمن المقطع من ذيل قصيدة ماراكل نبوءة مضمرة أخرى:

انهض سويتو. من شباكي أرى الموت

لأمريكي هذا الذي لا يستطيع إغراقنا جميعاً.

انهض سويتو! جاء دوري

إنه خلف المنعطف... إنه النصر[68].

تقوم الشاعرة ماراكل بتعرية الإمبريالية الأمريكية بمهارة لافتة. تستحضر التصور الأمريكي التقليدي للأرض الأجنبية بوصفها جسد عذراء ثم تقلب ذلك التصور إلى رواية تمكين. مستخدمة صورة القذف المجازية، توحي بأن الولايات المتحدة ستنهار يوماً من فرط التعب، انهياراً ستطلقه ضحايا التوغل (الاختراق) الأمريكي الكوكبي. فالأرض نفسها. هذه الأرض التي تصر الولايات المتحدة راهناً على تخريبها خراباً لا عمار بعده، يجري تقديمها مثل امرأة ذات وظيفة، لا بوصفها بضاعة يمكن إنفاقها قابلة للاستغلال وسيلة للربح كما درجت الشركات الأمريكية على أن تفعل.

إذا كانت ماراكل توظف أحداث الشغب العنصرية في سويتو رمزاً عالمياً لتطلعات سائر المستعمَرين (بفتح الميم) إلى التحرير، فإن الرمز ينطبق تماماً على العرب في العراق وفلسطين (كما تبين ماراكل نفسها في قصائد أخرى. كما في كل من جنوب إفريقيا، أستراليا وأمريكا الشمالية، يجري تسويغ حرمان السكان الأصليين من حقوقهم في العراق وفلسطين وإدامته باستخدام سلاح

العنصرية، والمجتمعات التي هي عنصرية محكومة، كما تتكهن ماراكل، بأن تخفق ذات يوم. وبوصفي عربياً، أقول بثقة: إن دورنا قادم متواكباً مع قصيدة ماراكل؛ وبوصفي أمريكياً، أقول الشيء نفسه ولكن للسبب النقيض، وأقول بحزنٍ طاغٍ لأن الدولة التي وُلدت فيها دائبة على تدمير ذاتها. من شأن السماح لعنصرية معاداة العرب بمواصلة الازدهار في المجتمع الأمريكي، أن يجعل "الموت لهذه الأمريكا"، يوماً، أكثر من مجرد نبوءة شعرية منظومة. إنها ملحمة حقيقة **أمريكي**. حقاً هي شبيهة بنكتة عتيقة عليلة، تغدو نقطة انطفائها أقرب فأقرب.

obeikandl.com